

محاضرات مقرر العقيدة (3)

د. أحمد الطيار

دراسات اسلامية

2016 - 2017

المحاضرة الثالثة

ومنه: قوله تعالى: (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِيَّ ۖ قَالَ الْآخَرُونَ: هذا دليل الفضل لا الأفضلية، وإلا لزم تفضيله على محمد p. فإن قلت: هو من ذريته ؟ فمن ذريته البر والفاجر، بل يوم القيامة إذا قيل لأدم: {ابعث من ذريتك بعثا إلى النار، يبعث من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار، وواحدا إلى الجنة} (). فما بال هذا التفضيل سرى إلى هذا الواحد من الألف فقط.

ومنه: قول عبد الله بن سلام r " ما خلق الله خلقا أكرم عليه من محمد p "، الحديث. فالشأن في ثبوته، وإن صح عنه فالشأن في ثبوته في نفسه، فإنه يحتمل أن يكون من الإسرائيليات.

ومنه: حديث عبد الله بن عمرو r أن رسول الله p قال: {إن الملائكة قالت: يا ربنا، أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون، ونحن نسبح بحمدك، ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة ؟ قال: لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له: كن فكان} . أخرجه الطبراني. وأخرجه عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل عن عروة بن رويم، أنه قال: أخبرني الأنصاري، عن النبي p {أن الملائكة قالوا} ، الحديث، وفيه: {وينامون ويستريحون، فقال الله تعالى: لا، فأعادوا القول ثلاث مرات، كل ذلك يقول: لا} .

والشأن في ثبوتهما، فإن في سندهما مقالا، وفي متنتهما شيئا، فكيف يظن بالملائكة الاعتراض على الله مرات عديدة ؟ وقد أخبر الله تعالى عنهم أنهم لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون. وهل يظن بهم أنهم متبرمون بأحوالهم، متشوقون إلى ما سواها من شهوات بني آدم ؟ والنوم أخو الموت، فكيف يغبطونهم به ؟ وكيف يظن بهم أنهم يغبطونهم باللهو، وهو من الباطل ؟ قالوا: بل الأمر بالعكس، فإن إبليس إنما وسوس إلى آدم ودلاه بغرور، إذ أطمعه في أن يكون ملكا بقوله: (مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ). فدل أن أفضلية الملك أمر معلوم مستقر في الفطرة، يشهد لذلك قوله تعالى حكاية عن النسوة اللاتي قطعن أيديهن عند رؤية يوسف: (وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ)

وقال تعالى (قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۖ) . قال الأولون: إن هذا إنما كان لما هو مركز في النفس: أن الملائكة خلق جميل عظيم، مقتدر على الأفعال الهائلة، خصوصا العرب، فإن الملائكة كانوا في نفوسهم من العظمة بحيث قالوا إن الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا.

ومنه قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ). قال الآخرون: قد يذكر " العالمون "، ولا يقصد به العموم المطلق، بل في كل مكان بحسبه، كما في قوله تعالى: (لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا).

(أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ). (وَلَقَدْ اخْتَرْنَاَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ).

ومنه قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ). والبرية: مشتقة من البرء، بمعنى الخلق، فنبت أن صالحى البشر خير الخلق. قال الآخرون: إنما صاروا خير البرية لكونهم آمنوا وعملوا الصالحات، والملائكة في هذا الوصف أكمل، فإنهم لا يسأمون ولا يفترون، فلا يلزم أن يكونوا خيرا من الملائكة. هذا على قراءة من قرأ " البريئة " بالهمز وعلى قراءة من قرأ بالياء، إن قلنا: إنها مخففة من الهمزة، وإن قلنا: إنها نسبة إلى [البرى] .

وهو التراب، كما قاله الفراء فيما نقله عنه الجوهرى في الصحاح -: يكون المعنى: أنهم خير من خلق من التراب، فلا عموم فيها إذا لغير من خلق من التراب. قال الأولون: إنما تكلمنا في تفضيل صالحى البشر إذا كملوا، ووصلوا إلى غايتهم وأقصى نهايتهم، وذلك إنما يكون إذا دخلوا الجنة. ونالوا الزلفى، وسكنوا الدرجات العلا، وحباهم الرحمن بمزيد قربه، وتجلى لهم ليستمتعوا بالنظر إلى وجهه الكريم. وقال الآخرون: الشأن في أنهم هل صاروا إلى حالة يفوقون فيها الملائكة أو يساوونهم فيها ؟ فإن كان قد ثبت أنهم يصيرون إلى حال يفوقون فيها الملائكة سلم المدعى، وإلا فلا.

ومما استدل به على تفضيل الملائكة على البشر: قوله تعالى: (لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ). وقد ثبت من طريق اللغة أن مثل هذا الكلام يدل على أن المعطوف أفضل من المعطوف عليه؛ لأنه لا يجوز

أن يقال: لن يستتكف الوزير أن يكون خادما للملك، ولا الشرطي أو الحارس! وإنما يقال: لن يستتكف الشرطي أن يكون خادما للملك ولا الوزير. ففي مثل هذا التركيب يترقى من الأدنى إلى الأعلى، فإذا ثبت تفضيلهم على عيسى عليه السلام ثبت في حق غيره، إذ لم يقل أحد إنهم أفضل من بعض الأنبياء دون بعض. أجاب الآخرون بأجوبة، أحسنها، أو من أحسنها: أنه لا نزاع في فضل قوة الملك وقدرته وشدته وعظم خلقه، وفي العبودية خضوع وذل وانقياد، وعيسى عليه السلام [لا يستتكف] .

عنها ولا من هو أقدر منه وأقوى وأعظم خلقا، ولا يلزم من مثل هذا التركيب الأفضلية المطلقة من كل وجه.

ومنه قوله تعالى: (قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۖ).

ومثل هذا يقال بمعنى: إنني لو قلت ذلك لادعيت فوق منزلتي، ولست ممن يدعي ذلك. أجاب الآخرون: بأن الكفار كانوا قد قالوا: (وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۚ). فأمر أن يقول لهم: إنني بشر مثلكم أحتاج إلى ما يحتاج إليه البشر من الاكتساب والأكل والشرب، لست من الملائكة الذين لم يجعل الله لهم حاجة إلى الطعام والشراب، فلا يلزم حينئذ الأفضلية المطلقة.

ومنه ما روى مسلم بإسناده، عن أبي هريرة τ قال: قال رسول الله ρ {المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير} . ومعلوم أن قوة البشر لا تداني قوة الملك ولا تقاربها. قال الآخرون. الظاهر أن المراد المؤمن من البشر - والله أعلم - فلا تدخل الملائكة في هذا العموم.

ومنه ما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة τ عن النبي ρ أنه قال فيما يروي عن ربه γ قال: {يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم} . الحديث. وهذا نص في الأفضلية. قال الآخرون: يحتمل أن يكون المراد خيرا منه للمذكور، [لا الخيرية] المطلقة.

ومنه ما رواه إمام الأئمة محمد بن خزيمة، بسنده في كتاب التوحيد، عن أنس τ قال: قال رسول الله ρ {بيننا أنا جالس إذ جاء جبرائيل، فوكز بين كتفي، فقامت إلى شجرة مثل وكري الطير، فقع في إحداهما، وقعدت في الأخرى، فسمت وارتفعت حتى سدت الخافقين، وأنا أقلب بصري، ولو شئت أن أمس السماء مسيت، فنظرت إلى جبرائيل كأنه حلس لاطى، فعرفت فضل علمه بالله علي}.

قال الآخرون: في سنده مقال، فلا نسلم الاحتجاج به إلا بعد ثبوته (.) .

وحاصل الكلام: أن هذه المسألة من فضول المسائل، ولهذا لم يتعرض لها كثير من أهل الأصول، وتوقف أبو حنيفة رحمه الله في الجواب عنها، كما تقدم. والله أعلم بالصواب.

وَجُوبُ الْإِيمَانِ بِمَنْ سَمَّى اللَّهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ رُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ

وأما الأنبياء والمرسلون، فعلينا الإيمان بمن سمى الله تعالى في كتابه من رسله، والإيمان بأن الله تعالى أرسل رسلا سواهم وأنبياء، لا يعلم أسماءهم وعددهم إلا الله تعالى الذي أرسلهم. فعلينا الإيمان بهم جملة؛ لأنه لم يأت في عددهم نص. وقد قال تعالى: (وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ) . وقال تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۚ).

وعلينا الإيمان بأنهم بلغوا جميع ما أرسلوا به، على ما أمرهم الله به، وأنهم بينوه بيانا لا يسع أحدا ممن أرسلوا إليه جهله، ولا يحل خلافه. قال تعالى: (فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ). (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ). (وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى الرُّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ). (وَأَطِيعُوا الرُّسُولَ ۚ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ).

أَوَّلُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ

وأما أولو العزم من الرسل فقد قيل فيهم أقوال أحسنها: ما نقله البغوي وغيره عن ابن عباس وقتادة: أنهم نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهم. قال: وهم المذكورون في قوله تعالى: (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَنُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ). وفي قوله تعالى: (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ).^٤

وأما الإيمان بمحمد μ فتصديقه واتباع ما جاء به من الشرائع إجمالاً وتفصيلاً.

الإيمان بما سَمَّى الله مِنَ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ

وأما الإيمان بالكتب المنزلة على المرسلين، فنؤمن بما سَمَّى الله تعالى منها في كتابه، من التوراة والإنجيل والزيور، ونؤمن بأن الله تعالى سوى ذلك كتباً أنزلها على أنبيائه، لا يعرف أسماءها وعددها إلا الله تعالى.

وأما الإيمان بالقرآن، فالإقرار به، واتباع ما فيه، وذلك أمر زائد على الإيمان بغيره من الكتب. فعلينا الإيمان بأن الكتب المنزلة على رسل الله أتت من عند الله، وأنها حق وهدى ونور وبيان وشفاء. قال تعالى: (قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا) إلى قوله: (وَمَا أُوْتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ) ، (الم (1) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) إلى قوله: (وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ). ، (أَمَنْ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ) .

(أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا). إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تكلم بها، وأنها نزلت من عنده. وفي ذلك إثبات صفة الكلام والعلو.

وقال تعالى: (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ) ، (وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (41) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) ، (وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ) ، (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ) . (فَامْشُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورَ الَّذِي أُنْزِلَنَا). وأمثال ذلك كثيرة في القرآن.

أَهْلُ الْقِبْلَةِ مُسْلِمُونَ مُؤْمِنُونَ

قوله: (ونسَمي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين، ما داموا بما جاء به النبي μ معترفين، وله بكل ما قاله وأخبر مصدقين).

ش: قال رسول الله μ {من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فهو المسلم، له ما لنا وعليه ما علينا.} () ويشير الشيخ رحمه الله بهذا الكلام إلى أن الإسلام والإيمان واحد، وأن المسلم لا يخرج من الإسلام بارتكاب الذنب ما لم يستحلّه.

والمراد بقوله: " أهل قبلتنا "، من يدعي الإسلام ويستقبل الكعبة، وإن كان من أهل الأهواء، أو من أهل المعاصي، ما لم يكذب بشيء مما جاء به الرسول μ . وسيأتي الكلام على هذين المعنيين عند قول الشيخ: " ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحلّه ". وعند قوله: " والإسلام والإيمان واحد، وأهله في أصله سواء ".

الْكَفُّ عَنْ كَلَامِ الْمُتَكَلِّمِينَ الْبَاطِلِ وَذَمُّ عِلْمِهِمْ لِأَنَّهُمْ يَتَكَلَّمُونَ فِي الْإِلَهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ

قوله: (ولا نخوض في الله، ولا نماري في دين الله).

ش: يشير الشيخ رحمه الله إلى الكف عن كلام المتكلمين الباطل، وذم علمهم، فإنهم يتكلمون في الإله بغير علم وغير سلطان أتاها. (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى).

وعن أبي حنيفة رحمه الله، أنه قال: لا ينبغي لأحد أن ينطق في ذات الله بشيء، بل يصفه بما وصف به نفسه.

وقال بعضهم: الحق سبحانه يقول: من ألزمته القيام مع أسمائي وصفاتي ألزمته الأدب، ومن كشفت له حقيقة ذاتي ألزمته العطب، فاختر الأدب أو العطب. ويشهد لهذا: أنه سبحانه لما كشف للجبل عن ذاته ساخ الجبل وتدكدك ولم يثبت على عظمة الذات. قال [الشبلي] الانبساط بالقول مع الحق ترك الأدب.

وقوله: " ولا نماري في دين الله ". معناه: لا نخاصم أهل الحق بإلقاء شبهات أهل الأهواء عليهم، التماسا لامترائهم وميلهم؛ لأنه في معنى الدعاء إلى الباطل، وتلبيس الحق، وإفساد دين الإسلام.

المحاضرة الرابعة

النهي عن الجدل في القرآن

قوله: (ولا نجادل في القرآن، ونشهد أنه كلام رب العالمين، نزل به الروح الأمين، فعلمه سيد المرسلين محمداً p. وهو كلام الله تعالى، لا يساويه شيء من كلام المخلوقين، ولا نقول بخلقه، ولا نخالف جماعة المسلمين).

ش: فقوله: " ولا نجادل في القرآن "، يحتمل أنه أراد: أنا لا نقول فيه كما قال أهل الزيغ واختلفوا، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، بل نقول: إنه كلام رب العالمين، نزل به الروح الأمين، إلى آخر كلامه. ويحتمل أنه أراد: أنا لا نجادل في القراءة الثابتة، بل نقرؤه بكل ما ثبت وصح. وكل من المعنيين حق. ويشهد بصحة المعنى الثاني،

ما روي {عن عبد الله بن مسعود} أنه قال: سمعت رجلاً قرأ آية سمعت رسول الله p يقرأ خلفها، فأخذت بيده، فانطلقت به إلى رسول الله p [فذكرت] ذلك له، فعرفت في وجهه الكراهة، وقال: كلاكما محسن، لا تختلفوا، فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا {رواه مسلم (.)}.

نهى p عن الاختلاف الذي فيه جحد كل واحد من المختلفين ما مع صاحبه من الحق؛ لأن كلا القارئ كان محسناً فيما قرأه، وعلل ذلك بأن من كان قبلنا اختلفوا فهلكوا، ولهذا قال حذيفة r لعثمان r أدرك هذه الأمة لا تختلف كما اختلفت الأمم قبلهم. فجمع الناس على حرف واحد اجتماعاً سائغاً وهم معصومون أن يجتمعوا على ضلال، ولم يكن في ذلك ترك لواجب، ولا فعل لمحذور، إذ كانت قراءة القرآن على سبعة أحرف جائزة لا واجبة،

رخصة من الله تعالى، وقد جعل الاختيار إليهم في أي حرف اختاروه، كما أن ترتيب السور لم يكن واجباً عليهم منصوصاً. ولهذا كان ترتيب مصحف عبد الله على غير ترتيب المصحف العثماني، وكذلك مصحف غيره. وأما ترتيب آيات السور فهو ترتيب منصوص عليه، فلم يكن لهم أن يقدموا آية على آية، بخلاف السور، فلما رأى الصحابة أن الأمة تتفرق وتختلف وتتقاتل إن لم تجتمع على حرف واحد، جمعهم الصحابة عليه. هذا قول جمهور السلف من العلماء والقراء، قاله ابن جرير وغيره.

منهم من يقول: إن الترخص في الأحرف السبعة كان في أول الإسلام، لما في المحافظة على حرف واحد من المشقة عليهم أولاً، فلما تذلت ألسنتهم بالقراءة، وكان اتفاقهم على حرف واحد يسيراً عليهم،

وهو أوفق لهم -: أجمعوا على الحرف الذي كان في العريضة الأخيرة.

وذهب طوائف من الفقهاء وأهل الكلام إلى أن المصحف مشتمل على الأحرف السبعة. وقد اتفقوا على نقل المصحف العثماني. وترك ما سواه. وقد تقدمت الإشارة إلى الجواب، وهو: أن ذلك كان جائزاً لا واجباً، أو أنه صار منسوخاً. وأما من قال عن ابن مسعود: إنه كان يجوز القراءة بالمعنى! فقد كذب عليه، وإنما قال: (قد نظرت إلى القراء فرأيت قراءتهم متقاربة، وإنما هو كقول أحدكم: هلم، وأقبل، وتعال، فاقرأوا كما علمتم)، أو كما قال.

والله تعالى قد أمرنا أن لا نجادل أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم .

فكيف بمناظرة أهل القبله ؟ فإن أهل القبله من حيث الجملة خير من أهل الكتاب، فلا يجوز أن يناظر من لم يظلم منهم إلا بالتي هي أحسن، وليس إذا أخطأ يقال إنه كافر، قبل أن تقام عليه الحجة التي حكم الرسول بكفر من تركها. والله تعالى قد عفا لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان. ولهذا ذم السلف أهل الأهواء، وذكروا أن آخر أمرهم السيف.

وسيأتي لهذا المعنى زيادة بيان، إن شاء الله تعالى، عند قول الشيخ: (ونرى الجماعة حقاً وصواباً، والفرقة زيغاً وعذاباً).

وقوله: " ونشهد أنه كلام رب العالمين " - قد تقدم الكلام على هذا المعنى عند قوله: (وإن القرآن كلام الله منه بدا بلا كيفية قولاً).

وقوله: (نزل به الروح الأمين)، هو جبرائيل عليه السلام، سمي روحا لأنه حامل الوحي الذي به حياة القلوب إلى الرسل من البشر صلوات الله عليهم أجمعين، وهو أمين حق أمين، صلوات الله عليه. قال تعالى: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ). وقال تعالى: (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (19) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (20) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ). وهذا وصف جبرائيل. بخلاف قوله تعالى: (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٍ). الآيات - فإن الرسول هنا هو محمد p.

وقوله: " فعلمه سيد المرسلين " - تصريح بتعليم جبرائيل إياه، إبطالا لتوهم القرامطة وغيرهم أنه تصوره في نفسه إلهاما.

وقوله: (ولا نقول بخلقه، ولا نخالف جماعة المسلمين) - تنبيه على أن من قال بخلق القرآن فقد خالف جماعة المسلمين، فإن سلف الأمة كلهم متفقون على أنه كلام الله بالحقيقة غير مخلوق، بل قوله: " ولا نخالف جماعة المسلمين "، مجرى على إطلاقه: أنا لا نخالف جماعة المسلمين في جميع ما اتفقوا عليه فإن خلافتهم زيغ وضلال وبدعة.

[دَلَالُ نُبُوءَةِ الْأَنْبِيَاءِ كَثِيرَةٌ وَمُتَنَوِّعَةٌ]

وَالطَّرِيقَةُ الْمَشْهُورَةُ عِنْدَ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالنَّظَرِ، تَقْرِيرُ نُبُوءَةِ الْأَنْبِيَاءِ بِالْمُعْجَزَاتِ، لَكِنْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ لَا يَعْرِفُ نُبُوءَةَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا بِالْمُعْجَزَاتِ، وَقَدْ رُويَ (١) ذَلِكَ بِطَرُقٍ مُضْطَرَّبَةٍ، وَالتَّرَمُّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ إِنَّكَارَ خَرَقِ الْعَادَاتِ لِغَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ، حَتَّى أَنْكَرُوا كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ وَالسَّحَرِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْمُعْجَزَاتِ دَلِيلٌ صَحِيحٌ، لَكِنَّ الدَّلِيلَ غَيْرَ مَحْصُورٍ فِي الْمُعْجَزَاتِ، فَإِنَّ النُّبُوءَةَ إِنَّمَا يَدَّعِيهَا أَصْدَقُ الصَّادِقِينَ أَوْ أَكْذَبُ الْكَاذِبِينَ، وَلَا يَلْتَمِسُ هَذَا بِهِدًا إِلَّا عَلَى أَجْهَلِ الْجَاهِلِينَ. بَلْ قَرَأْنُ أَحْوَالِهِمَا تُعْرِبُ عَنْهُمَا، وَتُعْرِفُ بِهِمَا

وَالْتَّمِيزُ بَيْنَ الصَّادِقِ وَالْكَاذِبِ لَهُ طُرُقٌ كَثِيرَةٌ فِيمَا دُونَ دَعْوَى النُّبُوءَةِ، فَكَيْفَ بِدَعْوَى النُّبُوءَةِ؟ وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ حَسَّانُ ط

لَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُبَيَّنَّةٌ كَانَتْ بِدِيهَتُهُ تَأْتِيكَ بِالْخَبَرِ

وَمَا مِنْ أَحَدٍ ادَّعَى النُّبُوءَةَ مِنَ الْكَذَّابِينَ إِلَّا وَقَدْ ظَهَرَ عَلَيْهِ مِنَ الْجَهْلِ وَالْكَذِبِ وَالْفُجُورِ وَاسْتِخْوَاذِ الشَّيَاطِينِ عَلَيْهِ - مَا ظَهَرَ لِمَنْ لَهُ أَدْنَى تَمْيِيزٍ. فَإِنَّ الرَّسُولَ لَا بُدَّ أَنْ يُخْبِرَ النَّاسَ بِأُمُورٍ وَيَأْمُرُهُمْ بِأُمُورٍ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَفْعَلَ أُمُورًا [يُبَيِّنُ بِهَا صِدْقَهُ]. وَالْكَاذِبُ يَظْهَرُ فِي نَفْسٍ مَا يَأْمُرُ بِهِ وَيُخْبِرُ عَنْهُ وَمَا يَفْعَلُهُ مَا يَبَيِّنُ بِهِ كَذِبَهُ مِنْ وَجْهِ كَثِيرَةٍ. وَالصَّادِقُ صِدْقُهُ. بَلْ كُلُّ شَخْصَيْنِ ادَّعَيَا أَمْرًا: أَحَدُهُمَا صَادِقٌ وَالْآخَرُ كَاذِبٌ - لَا بُدَّ أَنْ يَظْهَرَ صِدْقُ هَذَا وَكَذِبُ هَذَا وَلَوْ بَعْدَ مُدَّةٍ، إِذِ الصِّدْقُ مُسْتَلَزِمٌ لِلْبِرِّ، وَالْكَذِبُ مُسْتَلَزِمٌ لِلْفُجُورِ () فِي الْمَطْبُوعَةِ " ينظر " : ولا معنى لها هنا .

كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ النَّبِيِّ p أَنَّهُ قَالَ: {عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدْقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا} وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: (تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ (223) وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (226))

فَالْكُفَّانُ وَنَحْوُهُمْ، وَإِنْ كَانُوا أَحْيَانًا يُخْبِرُونَ بِشَيْءٍ مِنَ الْغَيْبِيَّاتِ، وَيَكُونُ صِدْقًا - فَمَعَهُمْ مِنَ الْكَذِبِ وَالْفُجُورِ مَا يُبَيِّنُ أَنَّ الَّذِي يُخْبِرُونَ بِهِ لَيْسَ عَنْ مَلِكٍ، وَلَيْسُوا بِأَنْبِيَاءٍ وَلِهَذَا {لَمَّا قَالَ النَّبِيُّ p لِابْنِ صَيَّادٍ: قَدْ خَبَأْتُ لَكَ خَبِيئًا، فَقَالَ: هُوَ الدُّخُّ - قَالَ لَهُ النَّبِيُّ p أَحْسَا، فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ يَعْنِي: إِنَّمَا أَنْتَ كَاهِنٌ} . وَقَدْ قَالَ لِلنَّبِيِّ p يَا تُبَيِّنِي صَادِقٌ وَكَاذِبٌ. وَقَالَ: أَرَى عَرْشًا

عَلَى الْمَاءِ، وَذَلِكَ هُوَ عَرْشُ الشَّيْطَانِ وَبَيَّنَ أَنَّ الشُّعْرَاءَ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، وَالْغَاوِيُّ: الَّذِي يَتَّبِعُ هَوَاهُ وَشَهْوَتَهُ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مُضِرًّا لَهُ فِي الْعَاقِبَةِ.

فَمَنْ عَرَفَ الرَّسُولَ وَصِدْقَهُ وَوَفَاءَهُ وَمُطَابَقَةَ قَوْلِهِ لِعَمَلِهِ - عِلْمٌ عِلْمًا يَقِينًا أَنَّهُ لَيْسَ بِشَاعِرٍ وَلَا كَاهِنٍ.

وَالنَّاسُ يُمَيِّزُونَ بَيْنَ الصَّادِقِ وَالْكَاذِبِ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْأَدِلَّةِ، حَتَّى فِي الْمُدَّعَى لِلصَّنَاعَاتِ وَالْمَقَالَاتِ، كَمَنْ يَدَّعِي الْفَلَاحَةَ وَالنِّسَاجَةَ وَالْكِتَابَةَ، وَعِلْمُ النَّحْوِ وَالطِّبِّ وَالْفِقْهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

[قَدْ يَفْتَرُنْ بِخَبَرِ الْوَاحِدِ مِنَ الْقَرَّائِنِ مَا يَحْصُلُ مَعَهُ الْعِلْمُ الضَّرُورِيُّ]

وَالنَّبُوءَةُ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى عُلُومٍ وَأَعْمَالٍ لَا بُدَّ أَنْ يَتَّصِفَ الرَّسُولُ بِهَا، وَهِيَ أَشْرَفُ الْعُلُومِ وَأَشْرَفُ الْأَعْمَالِ. فَكَيْفَ يَشْتَبِهُ الصَّادِقُ فِيهَا بِالْكَاذِبِ؟ وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْمُحَقِّقِينَ عَلَى أَنَّ خَبَرَ الْوَاحِدِ وَالْإِثْنَيْنِ وَالثَّلَاثَةِ: قَدْ يَفْتَرُنْ بِهِ مِنَ الْقَرَّائِنِ مَا يَحْصُلُ مَعَهُ الْعِلْمُ الضَّرُورِيُّ، كَمَا يَعْرِفُ الرَّجُلُ رَضَى الرَّجُلُ وَحُبَّهُ وَبُغْضَهُ وَفَرْحَهُ وَحُزْنَهُ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا فِي نَفْسِهِ، بِأُمُورٍ تَظْهَرُ عَلَى وَجْهِهِ، قَدْ لَا يُمْكِنُ التَّعْبِيرُ عَنْهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: (وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ) ثُمَّ قَالَ: (وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ). وَقَدْ قِيلَ: مَا أَسْرَّ أَحَدٌ سَرِيرَةً إِلَّا أَظْهَرَهَا اللَّهُ عَلَى صَفَحَاتٍ وَجْهِهِ وَقَلَنَاتٍ لِسَانِهِ.

[يَعْلَمُ صِدْقَ الْمُخْبِرِ بِمَا يَفْتَرُنْ بِهِ مِنَ الْقَرَّائِنِ]

فَإِذَا كَانَ صِدْقُ الْمُخْبِرِ وَكَذِبُهُ يُعْلَمُ بِمَا يَفْتَرُنْ مِنَ الْقَرَّائِنِ، فَكَيْفَ يَدَّعَى الْمُدَّعِي أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، كَيْفَ يَخْفَى صِدْقُ هَذَا مِنْ كَذِبِهِ؟ وَكَيْفَ لَا يَتَمَيَّزُ الصَّادِقُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْكَاذِبِ بِوُجُوهِ مِنَ الْأَدِلَّةِ؟

وَلِهَذَا لَمَّا كَانَتْ خَدِيجَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَعْلَمُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ الصَّادِقُ الْبَارُّ، قَالَ لَهَا لَمَّا جَاءَهُ الْوَحْيُ: {إِنِّي قَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي () فَقَالَتْ: كَلَّا - وَاللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ، إِنَّكَ لَتَصِلَ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقَ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلَ الْكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُكْسِبَ الْمَعْدُومَ، وَتُعِينَ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ} . فَهُوَ لَمْ يَخَفْ مِنْ تَعَمُّدِ الْكَذِبِ، فَهُوَ يَعْلَمُ مِنْ نَفْسِهِ ﷺ أَنَّهُ لَمْ يَكْذِبْ، وَإِنَّمَا خَافَ أَنْ يَكُونَ قَدْ عَرَضَ لَهُ عَارِضُ سُوءٍ، وَهُوَ الْمَقَامُ النَّائِي .

فَذَكَرَتْ خَدِيجَةُ مَا يَنْفِي هَذَا، وَهُوَ مَا كَانَ مَجْبُولًا عَلَيْهِ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الشَّيَمِ، وَقَدْ عُلِمَ مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ أَنَّ مَنْ جَبَلَهُ عَلَى الْأَخْلَاقِ الْمَحْمُودَةِ وَنَزَّهَهُ عَنِ الْأَخْلَاقِ الْمَذْمُومَةِ: فَإِنَّهُ لَا يُخْزِيهِ.

وَكَذَلِكَ قَالَ النَّجَاشِيُّ لَمَّا اسْتَحْبَرَهُمْ عَمَّا يُخْبِرُ بِهِ وَاسْتَفَرَّاهُمْ الْقُرْآنَ فَقَرَّوْا عَلَيْهِ: إِنَّ هَذَا وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيُخْرِجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ. وَكَذَلِكَ وَرَقَةُ ابْنِ تَوْفَلٍ، لَمَّا أَخْبَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِمَا رَأَاهُ، وَكَانَ وَرَقَةً قَدْ تَنَصَّرَ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْإِنْجِيلَ بِالْعَرَبِيَّةِ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: أَيَّ عَمٍّ اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ مَا يَقُولُ، فَأَخْبَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِمَا رَأَى فَقَالَ: هَذَا هُوَ النَّامُوسُ الَّذِي كَانَ يَأْتِي مُوسَى.

وَكَذَلِكَ هِرْقُلُ مَلِكُ الرُّومِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا كَتَبَ إِلَيْهِ كِتَابًا يَدْعُوهُ فِيهِ إِلَى الْإِسْلَامِ، طَلَبَ مَنْ كَانَ هُنَاكَ مِنَ الْعَرَبِ، وَكَانَ أَبُو سُفْيَانَ قَدْ قَدِمَ فِي طَائِفَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ فِي تِجَارَةٍ إِلَى الشَّامِ، وَسَأَلَهُمْ عَنْ أَحْوَالِ النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلَ أَبَا سُفْيَانَ، وَأَمَرَ الْبَاقِينَ إِنْ كَذَبَ أَنْ يُكَذِّبُوهُ، فَصَارُوا بِسُكُوتِهِمْ مُوَافِقِينَ لَهُ فِي الْأَخْبَارِ، سَأَلَهُمْ: هَلْ كَانَ فِي آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ فَقَالُوا: لَا، قَالَ: هَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ؟ فَقَالُوا: لَا، وَسَأَلَهُمْ: أَهْوَى دُوْ نَسَبٍ فِيكُمْ؟ فَقَالُوا: نَعَمْ، وَسَأَلَهُمْ: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهَمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَقَالُوا: لَا، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْهِ كَذِبًا، وَسَأَلَهُمْ: هَلِ اتَّبَعَهُ ضُعَفَاءُ النَّاسِ أَمْ أَشْرَافُهُمْ؟ فَذَكَرُوا أَنَّ الضُّعَفَاءَ اتَّبَعُوهُ؟ وَسَأَلَهُمْ: هَلْ يَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فَذَكَرُوا أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَسَأَلَهُمْ: هَلْ يَرْجِعُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ سَخِطَةً لَهُ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ فَقَالُوا: لَا، وَسَأَلَهُمْ: هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قَالُوا: نَعَمْ، وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْحَرْبِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ؟ فَقَالُوا: يُدَالُ عَلَيْنَا مَرَّةً وَنُدَالُ عَلَيْهِ أُخْرَى، وَسَأَلَهُمْ: هَلْ يَعْدِرُ؟ فَذَكَرُوا أَنَّهُ لَا يَعْدِرُ، وَسَأَلَهُمْ: بِمَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ فَقَالُوا: يَأْمُرُنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَانَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقِ وَالْعِفَافِ وَالصِّلَةِ. وَهَذِهِ أَكْثَرُ مِنْ عَشْرِ مَسَائِلَ، ثُمَّ بَيَّنَّ لَهُمْ مَا فِي هَذِهِ الْمَسَائِلِ مِنَ الْأَدِلَّةِ، فَقَالَ: سَأَلْتُكُمْ هَلْ كَانَ فِي آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ فَقُلْتُمْ: لَا، قُلْتُ: لَوْ كَانَ فِي آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ لَقُلْتُ: رَجُلٌ يَطْلُبُ مَلِكََ أَبِيهِ،

وَسَأَلْتَكُمْ هَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ فِيكُمْ أَحَدٌ قَبْلَهُ؟ فَقُلْتُمْ: لَا، فَقُلْتُ: لَوْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ لَقُلْتُ: رَجُلٌ أَنْتُمْ يَقُولُ قِيلَ قَبْلَهُ،
وَسَأَلْتَكُمْ هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهَمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَقُلْتُمْ: لَا

المحاضرة الخامسة

فَقُلْتُ: قَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدَّعِ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ ثُمَّ يَذْهَبُ فَيَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ، وَسَأَلْتَكُمْ أَضَعَفَاءُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ أَشَرَّافُهُمْ؟
فَقُلْتُمْ: ضَعَفَاؤُهُمْ وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، يَعْنِي فِي أَوَّلِ أَمْرِهِمْ، ثُمَّ قَالَ: وَسَأَلْتَكُمْ هَلْ يَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فَقُلْتُمْ: بَلْ يَزِيدُونَ،
وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حَتَّى يَتِمَّ، وَسَأَلْتَكُمْ هَلْ يَزِيدُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ سُخْطَةً لَهُ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ فَقُلْتُمْ: لَا، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ، إِذَا
خَالَطَتْ بَسَاسَتُهُ الْقُلُوبَ لَا يَسْخُطُهُ أَحَدٌ.

وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ عِلَامَاتِ الصِّدْقِ وَالْحَقِّ، فَإِنَّ الْكَذِبَ وَالْبَاطِلَ لَا بُدَّ أَنْ يَنْكَشِفَ فِي آخِرِ الْأَمْرِ، فَيَرْجِعَ عَنْهُ أَصْحَابُهُ،
وَيَمْتَنِعَ عَنْهُ مَنْ لَمْ يَدْخُلْ فِيهِ، وَالْكَذِبُ لَا يَرُوجُ إِلَّا قَلِيلًا ثُمَّ يَنْكَشِفُ.

وَسَأَلْتَكُمْ كَيْفَ الْحَرْبُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ؟ فَقُلْتُمْ: إِنَّهَا دُولٌ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى وَتَكُونُ الْعَاقِبَةُ لَهَا، قَالَ: وَسَأَلْتُمْ هَلْ يَغْدِرُ؟ فَقُلْتُمْ:
لَا، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا تَغْدِرُ، وَهُوَ لِمَا كَانَ عِنْدَهُ مِنْ عِلْمِهِ بِعَادَةِ الرُّسُلِ وَسُنَّةِ اللَّهِ فِيهِمْ أَنَّهُ تَارَةً يَنْصُرُهُمْ وَتَارَةً يَنْتَلِيهِمْ وَأَنَّهَمْ
لَا يَغْدِرُونَ - عَلِمَ أَنَّ هَذِهِ عِلَامَاتُ الرُّسُلِ، وَأَنَّ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَنْتَلِيَهُمُ بِالْسرِّاءِ وَالضَّرَّاءِ، لِيَنَالُوا دَرَجَةَ
الشُّكْرِ وَالصَّبْرِ.

كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَقْضِي اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ
إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سرٌّ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرٌّ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ}

وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ بَيَّنَّ فِي الْقُرْآنِ مَا فِي إِدَالَةِ الْعُدُوِّ عَلَيْهِمْ يَوْمَ أَحُدٍ مِنَ الْحِكْمَةِ فَقَالَ: (وَلَا تَهْنُؤُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) الْآيَاتِ. وَقَالَ تَعَالَى: (أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ) الْآيَاتِ. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ
الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ عَلَى سُنَّتِهِ فِي خَلْقِهِ وَحِكْمَتِهِ الَّتِي بَهَرَتْ الْعُقُولَ.

قَالَ: وَسَأَلْتُمْ عَمَّا يَأْمُرُ بِهِ؟ فَذَكَرْتُمْ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعِفَافِ
وَالصِّلَةِ، وَيَنْهَاكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ، وَهَذِهِ صِفَةُ نَبِيٍّ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ نَبِيًّا يُبْعَثُ، وَلَمْ أَكُنْ أَظُنُّهُ مِنْكُمْ، وَلَوِ دِدْتُ أَنِّي
أَخْلَصُ إِلَيْهِ، وَلَوْ لَا مَا أَنَا فِيهِ مِنَ الْمَلِكِ لَذَهَبْتُ إِلَيْهِ، وَإِنْ يَكُنْ مَا نَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ.

وَكَانَ الْمُخَاطَبُ بِذَلِكَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، وَهُوَ حِينَئِذٍ كَافِرٌ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بُغْضًا وَعَدَاوَةً لِلنَّبِيِّ ﷺ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ
حَرْبٍ: فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي وَنَحْنُ خُرُوجٌ، لَقَدْ أَمَرَ ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ، إِنَّهُ لَيُعْظِمُهُ مَلِكُ بَنِي الْأَصْفَرِ، وَمَا زِلْتُ مُوقِنًا بِأَنَّ أَمْرَ
النَّبِيِّ ﷺ سَيُظْهَرُ، حَتَّى أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ وَأَنَا كَارِهٌ.

وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ: أَنَّ مَا يَحْصُلُ فِي الْقَلْبِ بِمَجْمُوعِ أُمُورٍ، قَدْ لَا يَسْتَقِيلُ بَعْضُهَا بِهِ، بَلْ مَا يَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ - مِنْ شِبَعٍ
وَرِيٍّ () وَشُكْرِ وَفَرَحٍ وَغَمٍّ - فَأُمُورٌ مُجْتَمِعَةٌ، لَا يَحْصُلُ بِبَعْضِهَا، لَكِنْ بِبَعْضِهَا قَدْ يَحْصُلُ بَعْضُ الْأَمْرِ.

وَكَذَلِكَ الْعِلْمُ بِخَبَرٍ مِنَ الْأَخْبَارِ، فَإِنَّ خَبَرَ الْوَاحِدِ يَحْصِلُ لِلْقَلْبِ نَوْعَ ظَنٍّ، ثُمَّ الْآخَرُ يُقَوِّيه، إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْعِلْمِ، حَتَّى
يَبْتَزِئِدَ وَيَقْوَى. وَكَذَلِكَ الْأَدِلَّةُ عَلَى الصِّدْقِ وَالْكَذِبِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَأَيْضًا: فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَبْقَى فِي الْعَالَمِ الْآثَارَ الدَّالَّةَ عَلَى مَا فَعَلَهُ بِأَنْبِيَائِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْكَرَامَةِ، وَمَا فَعَلَهُ بِمُكَذِّبِيهِمْ مِنَ
الْعُقُوبَةِ، كَتَبُوتِ الطُّوفَانِ، وَإِعْرَاقِ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ، وَلَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ قِصَصَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيًّا بَعْدَ نَبِيٍّ، فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ،
كَقِصَّةِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ وَنُوحٍ وَمَنْ بَعْدَهُ، يَقُولُ فِي آخِرِ كُلِّ قِصَّةٍ: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ) (67) وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ

وَبِالْجُمْلَةِ: فَالْعِلْمُ بِأَنَّهُ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَنْ يَقُولُ إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَّ أَقْوَامًا اتَّبَعُوهُمْ، وَأَنَّ أَقْوَامًا خَالَفُوهُمْ، وَأَنَّ اللَّهَ نَصَرَ الرُّسُلَ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَجَعَلَ الْعَاقِبَةَ لَهُمْ، وَعَاقَبَ أَعْدَاءَهُمْ: هُوَ مِنْ أَظْهَرِ الْعُلُومِ الْمُتَوَاتِرَةِ وَأَجْلَاهَا. وَنَقْلُ أَخْبَارِ هَذِهِ الْأُمُورِ أَظْهَرُ وَأَوْضَحُ مِنْ نَقْلِ أَخْبَارِ مَنْ مَضَى مِنَ الْأُمَمِ مِنْ مُلُوكِ الْفُرْسِ وَعُلَمَاءِ الطِّبِّ، كَبْفَرَاطُ وَجَالِينُوسَ وَبَطْلِينُوسَ وَسُفَرَاطُ وَأَفَلَاطُونُ وَأَرِسْطُو وَآتْبَاعِهِ.

وَنَحْنُ الْيَوْمَ إِذَا عَلِمْنَا بِالتَّوَاتُرِ مِنْ أَحْوَالِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَوْلِيَائِهِمْ وَأَعْدَائِهِمْ - عَلِمْنَا يَقِينًا أَنَّهُمْ كَانُوا صَادِقِينَ عَلَى الْحَقِّ مِنْ وَجْهِ مُتَعَدِّدَةٍ: مِنْهَا: أَنَّهُمْ أَخْبَرُوا الْأُمَّمَ بِمَا سَيَكُونُ مِنْ انْتِصَارِهِمْ وَخِذْلَانِ أَوْلِيَاكَ وَبَقَاءِ الْعَاقِبَةِ لَهُمْ. وَمِنْهَا: مَا أَحَدَّثَهُ اللَّهُ لَهُمْ مِنْ نَصْرِهِمْ وَإِهْلَاكِ عَدُوِّهِمْ، إِذَا عُرِفَ الْوَجْهَ الَّذِي حَصَلَ عَلَيْهِ، - كَعَرَقِ فِرْعَوْنَ وَغَرَقِ قَوْمِ نُوحٍ وَبَقِيَّةِ أَحْوَالِهِمْ - عُرِفَ صِدْقُ الرُّسُلِ.

وَمِنْهَا: أَنَّ مَنْ عَرَفَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنَ الشَّرَائِعِ وَتَفَاصِيلِ أَحْوَالِهَا، تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُمْ أَغْلَمُ الْخَلْقِ، وَأَنَّهُ لَا يَحْصُلُ مِثْلُ ذَلِكَ مِنْ كَذَابٍ جَاهِلٍ، وَأَنَّ فِيمَا جَاءُوا بِهِ مِنَ الْمَصْلَحَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْهُدَى وَالْخَيْرِ وَدَلَالَةِ الْخَلْقِ عَلَى مَا يَنْفَعُهُمْ وَمَنْعِ مَا يَضُرُّهُمْ - مَا يَبِينُ أَنَّهُ لَا يَصْدُرُ إِلَّا عَنْ رَاحِمٍ بَرٍّ يَقْصِدُ غَايَةَ الْخَيْرِ وَالْمَنْفَعَةِ لِلْخَلْقِ.

وَلِنُذَكِّرَ دَلَالِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ وَبَسْطِهَا مَوْضِعَ آخَرٍ، وَقَدْ أَفْرَدَهَا النَّاسُ بِمُصَنَّفَاتٍ، كَالْبَيْهَقِيِّ وَغَيْرِهِ.

[إِنْكَارُ رِسَالَتِهِ ﷺ طَعْنٌ فِي الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى]

بَلْ إِنْكَارُ رِسَالَتِهِ ﷺ طَعْنٌ فِي الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَنَسِبَتُهُ لَهُ إِلَى الظُّلْمِ وَالسَّفَهَةِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ غُلُوبًا كَبِيرًا، بَلْ جَحْدٌ لِلرَّبِّ بِالْكُلِّيَّةِ وَإِنْكَارٌ.

وَبَيَانُ ذَلِكَ: أَنَّهُ إِذَا كَانَ مُحَمَّدٌ عَنْدهُمْ لَيْسَ بِنَبِيِّ صَادِقٍ، بَلْ مَلِكٌ ظَالِمٌ، فَقَدْ تَهَيَّأَ لَهُ أَنْ يَفْتَرِيَ عَلَى اللَّهِ وَيَقُولَ عَلَيْهِ، وَيَسْتَمِرَّ حَتَّى يَحِلَّ وَيُحَرَّمَ، وَيَفْرَضَ الْفَرَائِضَ، وَيُشَرَّعَ الشَّرَائِعَ، وَيَنْسَخَ الْمِلَلُ، وَيَضْرِبَ الرِّقَابَ، وَيَقْتُلَ أَتْبَاعَ الرُّسُلِ وَهُمْ أَهْلُ الْحَقِّ، وَيَسْبِي نِسَاءَهُمْ وَيَغْنَمَ أَمْوَالَهُمْ وَيَذَارَهُمْ، وَيَتِمُّ لَهُ ذَلِكَ حَتَّى يَفْتَحَ الْأَرْضَ، وَيَنْسِبَ ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ لَهُ بِهِ وَمَحَبَّتِهِ لَهُ، وَالرَّبُّ تَعَالَى يُشَاهِدُهُ وَهُوَ يَفْعَلُ بِأَهْلِ الْحَقِّ، وَهُوَ مُسْتَمِرٌّ فِي الْإِفْتِرَاءِ عَلَيْهِ ثَلَاثًا وَعِشْرِينَ سَنَةً،

وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ يُؤَيِّدُهُ وَيَنْصُرُهُ، وَيُعْلِي أَمْرَهُ، وَيَمَكِّنُ لَهُ مِنْ أَسْبَابِ النَّصْرِ الْخَارِجَةِ عَنْ عَادَةِ الْبَشَرِ، وَأَبْلُغُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يُجِيبُ دَعَوَاتِهِ، وَيُهْلِكُ أَعْدَاءَهُ، وَيَرْفَعُ لَهُ ذِكْرَهُ، هَذَا وَهُوَ عَنْدهُمْ فِي غَايَةِ الْكُذْبِ وَالْإِفْتِرَاءِ وَالظُّلْمِ، فَإِنَّهُ لَا أَظْلَمَ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَأَبْطَلَ شَرَائِعَ أَنْبِيَائِهِ وَبَدَّلَهَا وَقَتَلَ أَوْلِيَاءَهُ، وَاسْتَمَرَّتْ نُصْرَتُهُ عَلَيْهِمْ دَائِمًا، وَاللَّهُ تَعَالَى يُؤَيِّدُهُ عَلَى ذَلِكَ، وَلَا يَأْخُذُ مِنْهُ بِالْيَمِينِ، وَلَا يَقْطَعُ مِنْهُ الْوَتِينَ. فَيَلْزَمُهُمْ أَنْ يَقُولُوا: لَا صَانِعَ لِلْعَالَمِ وَلَا مُدَبِّرَ، وَلَوْ كَانَ لَهُ مُدَبِّرٌ قَدِيرٌ حَكِيمٌ، لَأَخَذَ عَلَى يَدَيْهِ وَلِقَابَلَهُ أَعْظَمَ مُقَابَلَةٍ، وَجَعَلَهُ نَكَالًا لِلصَّالِحِينَ. إِذْ لَا يَلِيقُ بِالْمُلُوكِ غَيْرُ ذَلِكَ، فَكَيْفَ بِمَلِكِ الْمُلُوكِ وَأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ؟ وَلَا رَيْبَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ رَفَعَ لَهُ ذِكْرَهُ، وَأَظْهَرَ دَعْوَتَهُ وَالشَّهَادَةَ لَهُ بِالنُّبُوَّةِ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ فِي سَائِرِ الْبِلَادِ،

وَنَحْنُ لَا نُنْكَرُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْكَذَّابِينَ قَامَ فِي الْوُجُودِ، وَظَهَرَتْ لَهُ شَوْكَةٌ، وَلَكِنْ لَمْ يَتِمَّ أَمْرُهُ، وَلَمْ تَطُلْ مُدَّتُهُ، بَلْ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِ رُسُلَهُ وَأَتْبَاعَهُمْ، وَقَطَعُوا دَابِرَهُ وَاسْتَأْصَلُوهُ. هَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلُ، حَتَّى إِنَّ الْكُفَّارَ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ. قَالَ تَعَالَى: (أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَتَرَبَّصُّ بِهِ رَيْبَ الْمُؤْمِنِينَ (30) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ) أَفَلَا تَرَاهُ يُخْبِرُ أَنَّ كَمَالَهُ وَحُكْمَتَهُ وَقُدْرَتَهُ تَأْتِي أَنْ يُؤَيِّدَ مَنْ يَقُولُ عَلَيْهِ بَعْضُ الْأَقْوَالِ، لَا بُدَّ أَنْ يَجْعَلَهُ عِبْرَةً لِعِبَادِهِ كَمَا جَرَتْ بِذَلِكَ سُنَّتُهُ فِي الْمُتَقُولِينَ عَلَيْهِ. وَقَالَ تَعَالَى (3) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ۖ وَهَذَا انْتَهَى جَوَابُ الشَّرْطِ، ثُمَّ أَخْبَرَ خَبْرًا جَازِمًا غَيْرَ مُعَلَّقٍ: أَنَّهُ يَمْحُو الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ. وَقَالَ تَعَالَى: (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۚ) فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ مَنْ نَفَى عَنْهُ الْإِرْسَالَ وَالْكَلامَ لَمْ يَقْدِرْهُ حَقَّ قَدْرِهِ.

[الْفَرْقُ بَيْنَ النَّبِيِّ وَالرَّسُولِ]

وَقَدْ ذَكَرُوا فُرُوقًا بَيْنَ النَّبِيِّ وَالرَّسُولِ، وَأَحْسَنُهَا. أَنَّ مَنْ نَبَّأَهُ اللَّهُ بِخَبَرِ السَّمَاءِ، إِنَّ أَمْرَهُ أَنْ يُبَلِّغَ غَيْرَهُ، فَهُوَ نَبِيٌّ رَسُولٌ، وَإِنْ لَمْ يَأْمُرْهُ أَنْ يُبَلِّغَ غَيْرَهُ، فَهُوَ نَبِيٌّ وَلَيْسَ بِرَسُولٍ. فَالرَّسُولُ أَحْصُ مِنَ النَّبِيِّ، فَكُلُّ رَسُولٍ نَبِيٌّ، وَلَيْسَ كُلُّ نَبِيٍّ رَسُولًا،

وَلَكِنَّ الرِّسَالَةَ أَعَمُّ مِنْ جِهَةٍ نَفْسِهَا، فَالْنُّبُوَّةُ جُزْءٌ مِنَ الرِّسَالَةِ، إِذِ الرِّسَالَةُ تَتَنَاوَلُ النُّبُوَّةَ وَغَيْرَهَا، بِخِلَافِ الرُّسُلِ، فَإِنَّهُمْ لَا يَتَنَاوَلُونَ الْأَنْبِيَاءَ وَغَيْرَهُمْ، بَلِ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ. فَالرِّسَالَةُ أَعَمُّ مِنْ جِهَةٍ نَفْسِهَا، وَأَخْصُ مِنْ جِهَةٍ أَهْلِهَا.

وَأَرْسَالَ الرُّسُلِ مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَخُصُوصًا مُحَمَّدًا ﷺ كَمَا قَالَ تَعَالَى: (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) وَقَالَ تَعَالَى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)

[خَتَمُ النُّبُوَّةِ]

[خَتَمُ النُّبُوَّةِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ]

قَوْلُهُ: (وَأَنَّهُ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ)

ش: قَالَ تَعَالَى: (وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ) وَقَالَ ﷺ {مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ قَصْرِ أُحْسَنَ بِنَاؤُهُ، وَتُرِكَ مِنْهُ مَوْضِعُ لَبْنَةٍ، فَطَافَ بِهِ النَّظَّارُ يَتَعَجَّبُونَ مِنْ حُسْنِ بِنَائِهِ، إِلَّا مَوْضِعَ تِلْكَ اللَّبْنَةِ، لَا يَعِيبُونَ سِوَاهَا، فَكُنْتُ أَنَا سَدَدْتُ مَوْضِعَ تِلْكَ اللَّبْنَةِ خَتَمَ بَيْنِ الْبُنْيَانِ وَخَتَمَ بَيْنِ الرُّسُلِ } ، أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ. وَقَالَ ﷺ {إِنَّ لِي أَسْمَاءً: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي، يَمْحُو اللَّهُ بَيْنَ الْكُفْرِ، وَأَنَا الْحَاشِرُ، الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمَيَّ، وَأَنَا الْعَاقِبُ، وَالْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ} ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: {وَأَنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ كَذَّابُونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي} ، الْحَدِيثُ. وَلِمُسْلِمٍ: {أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: فَضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُجِّلْتُ لِي الْعَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخَتَمَ بَيْنِ النَّبِيِّينَ} .

قَوْلُهُ: (وَإِمَامُ الْأَنْفِيَاءِ)

ش: هُوَ ﷺ الْإِمَامُ الَّذِي يُؤْتَمُّ بِهِ، أَيُّ: يَقْتَدُونَ بِهِ. وَالنَّبِيُّ ﷺ إِنَّمَا بُعِثَ لِلْإِقْتِدَاءِ بِهِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) وَكُلُّ مَنْ اتَّبَعَهُ وَاقْتَدَى بِهِ فَهُوَ مِنَ الْأَتَقِيَاءِ.

قَوْلُهُ: (وَسَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ)

ش: قَالَ ﷺ {أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ} . رَوَاهُ مُسْلِمٌ. وَفِي أَوَّلِ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ: {أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} وَرَوَى مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ وَائِلَةَ بِنِ الْأَسْقَعِ ؓ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةٍ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ}

[جَوَازُ التَّفْضِيلِ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا إِذَا كَانَ عَلَى وَجْهِ الْحَمِيَّةِ]

فَإِنْ قِيلَ: يُشْكَلُ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ ﷺ {لَا تَفْضِلُونِي عَلَى مُوسَى، فَإِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَأَجِدُ مُوسَى بَاطِشًا بِسَاقِ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي هَلْ أَفَاقَ قَبْلِي، أَوْ كَانَ مِنِّي اسْتَنْتَى اللَّهُ؟} خَرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ، فَكَيْفَ يُجْمَعُ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ قَوْلِهِ ﷺ {أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرٌ} .

فَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذَا كَانَ لَهُ سَبَبٌ، فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ قَالَ يَهُودِيٌّ: لَا وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ، فَلَطَمَهُ مُسْلِمٌ، وَقَالَ: أَتَقُولُ هَذَا وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا؟ فَجَاءَ الْيَهُودِيُّ فَاشْتَكَى مِنَ الْمُسْلِمِ الَّذِي لَطَمَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا، لِأَنَّ التَّفْضِيلَ إِذَا كَانَ عَلَى وَجْهِ الْحَمِيَّةِ وَالْعَصِيَّةِ وَهَوَى النَّفْسِ كَانَ مَذْمُومًا.

بَلِ نَفْسُ الْجِهَادِ إِذَا قَاتَلَ الرَّجُلُ حَمِيَّةً وَعَصِيَّةً كَانَ مَذْمُومًا، فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الْفَخْرَ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: (وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ) . وَقَالَ تَعَالَى: (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ ﷻ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ؕ) فَعَلِمَ أَنَّ الْمَذْمُومَ إِنَّمَا هُوَ التَّفْضِيلُ عَلَى وَجْهِ الْفَخْرِ، أَوْ عَلَى وَجْهِ الْإِنْتِقَاصِ بِالْمَفْضُولِ. وَعَلَى هَذَا يُحْمَلُ أَيْضًا قَوْلُهُ ﷺ {لَا

تَفَضَّلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ } ، إِنْ كَانَ ثَابِتًا، فَإِنَّ هَذَا قَدْ رُوِيَ فِي نَفْسِ حَدِيثِ مُوسَى، وَهُوَ فِي الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ. لَكِنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَقُولُ: إِنَّ فِيهِ عِلَّةً، بِخِلَافِ حَدِيثِ مُوسَى، فَإِنَّهُ صَحِيحٌ لَا عِلَّةَ فِيهِ بِاتِّفَاقِهِمْ.

وَقَدْ أَجَابَ بَعْضُهُمْ بِجَوَابٍ آخَرَ، وَهُوَ: أَنَّ قَوْلَهُ p {لَا تَفَضَّلُونِي عَلَى مُوسَى} ، وَقَوْلُهُ: {لَا تَفَضَّلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ} () نَهَى عَنِ التَّفْضِيلِ الْخَاصِّ، أَيْ: لَا يُفَضَّلُ بَعْضُ الرُّسُلِ عَلَى بَعْضِ بَعْضِهِ، بِخِلَافِ قَوْلِهِ: {أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرُ} () فَإِنَّهُ تَفْضِيلٌ عَامٌّ فَلَا يُمْنَعُ مِنْهُ. وَهَذَا كَمَا لَوْ قِيلَ: فَلَانُ أَفْضَلُ أَهْلِ الْبَلَدِ، لَا يَصْنَعُ عَلَى أَفْرَادِهِمْ، بِخِلَافِ مَا لَوْ قِيلَ لِأَحَدِهِمْ: فَلَانُ أَفْضَلُ مِنْكَ. ثُمَّ إِنِّي رَأَيْتُ الطَّحَاوِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَدْ أَجَابَ بِهَذَا الْجَوَابِ فِي شَرْحِ مَعَانِي الْأَثَارِ.

وَأَمَّا مَا يُرَوَى أَنَّ النَّبِيَّ p قَالَ: {لَا تَفَضَّلُونِي عَلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى} () ، وَأَنَّ بَعْضَ الشُّيُوخِ قَالَ: لَا يُفَسِّرُ لَهُمْ هَذَا الْحَدِيثَ حَتَّى يُعْطَى مَا لَا جَزِيلًا، فَلَمَّا أَعْطَوْهُ فَسَّرَهُ بِأَنَّ قُرْبَ يُونُسَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ كَقُرْبِي مِنَ اللَّهِ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ وَعَدُّوا هَذَا تَفْسِيرًا عَظِيمًا.

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى جَهْلِهِمْ بِكَلَامِ اللَّهِ وَبِكَلَامِ رَسُولِهِ لَفْظًا وَمَعْنَى، فَإِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ بِهَذَا اللَّفْظِ لَمْ يَرَوْهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْكُتُبِ الَّتِي يُعْتَمَدُ عَلَيْهَا، وَإِنَّمَا اللَّفْظُ الَّذِي فِي الصَّحِيحِ: {لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى} . وَفِي رِوَايَةٍ: {مَنْ قَالَ إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى فَقَدْ كَذَبَ} () . وَهَذَا اللَّفْظُ يَدُلُّ عَلَى الْعُمُومِ، لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يُفَضِّلَ نَفْسَهُ عَلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى، لَيْسَ فِيهِ نَهْيُ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُفَضَّلُوا مُحَمَّدًا عَلَى يُونُسَ، وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَخْبَرَ عَنْهُ أَنَّهُ التَّقَمُّهُ الْحُوتِ وَهُوَ مُلِيمٌ، أَيْ: فَاعِلٌ مَا يُلَامُ عَلَيْهِ. وَقَالَ تَعَالَى: (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)

فَقَدْ يَقَعُ فِي نَفْسِ بَعْضِ النَّاسِ أَنَّهُ أَكْمَلُ مِنْ يُونُسَ، فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى هَذَا الْمَقَامِ، إِذْ لَا يَفْعَلُ مَا يُلَامُ عَلَيْهِ. وَمَنْ ظَنَّ هَذَا فَقَدْ كَذَبَ، بَلْ كُلُّ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ يَقُولُ مَا قَالَ يُونُسُ: (أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) كَمَا قَالَ أَوَّلُ الْأَنْبِيَاءِ وَآخِرُهُمْ، فَأَوَّلُهُمْ: آدَمُ، قَدْ قَالَ: (قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) وَآخِرُهُمْ وَأَفْضَلُهُمْ وَسَيِّدُهُمْ: مُحَمَّدٌ p قَالَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ، حَدِيثِ الْاسْتِفْتَاكِ، مِنْ رِوَايَةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ r وَغَيْرِهِ، بَعْدَ قَوْلِهِ (وَجَهَّتْ وَجْهِي) إِلَى آخِرِهِ: {اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا، لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ} () ، إِلَى آخِرِ الْحَدِيثِ،

وَكَذَا قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: (قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) () وَأَيْضًا: فَيُونُسُ p لَمَّا قِيلَ فِيهِ: (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ) فَتُحْيِي نَبِيَّنَا p عَنْ التَّشَبُّهِ بِهِ، وَأَمَرَهُ بِالتَّشَبُّهِ بِأُولِي الْعِزِّمِ حَيْثُ قِيلَ لَهُ: (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أَوَّلُو الْعِزِّمِ مِنَ الرُّسُلِ) فَقَدْ يَقُولُ مَنْ يَقُولُ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ. وَلَيْسَ لِلْأَفْضَلِ أَنْ يَفْخَرَ عَلَى مَنْ دُونَهُ، فَكَيْفَ إِذَا لَمْ يَكُنْ أَفْضَلَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ النَّبِيِّ p أَنَّهُ قَالَ: {أُوجِي إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا، حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَنْبَغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ}

() . فَاللَّهُ تَعَالَى نَهَى أَنْ يَفْخَرَ عَلَى عُمُومِ الْمُؤْمِنِينَ، فَكَيْفَ عَلَى نَبِيِّ كَرِيمٍ؟ فَلِهَذَا قَالَ: {لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى} () . فَهَذَا نَهْيٌ عَامٌّ لِكُلِّ أَحَدٍ أَنْ يَتَفَضَّلَ وَيَفْتَخِرَ عَلَى يُونُسَ. وَقَوْلُهُ: {مَنْ قَالَ إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى فَقَدْ كَذَبَ} () ، فَإِنَّهُ لَوْ قُدِّرَ أَنَّهُ كَانَ أَفْضَلَ، فَهَذَا الْكَلَامُ يَصِيرُ نَفْصًا، فَيَكُونُ كَاذِبًا، وَهَذَا لَا يَقُولُهُ نَبِيٌّ كَرِيمٌ، بَلْ هُوَ تَقْدِيرٌ مُطْلَقٌ، أَيْ: مَنْ قَالَ هَذَا فَهُوَ كَاذِبٌ، وَإِنْ كَانَ لَا يَقُولُهُ نَبِيٌّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: (لَنْ أَسْرُكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ) وَإِنْ كَانَ p مَعْصُومًا مِنَ الشَّرِكِ، لَكِنَّ الْوَعْدَ وَالْوَعْدَ لِنَبِيَّانِ مَقَادِيرِ الْأَعْمَالِ.

وَإِنَّمَا أَخْبَرَ p أَنَّهُ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، لِأَنَّا لَا يُمَكِّنُنَا أَنْ نَعْلَمَ ذَلِكَ إِلَّا بِخَبَرِهِ، إِذْ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ يُخْبِرُنَا بِعَظِيمِ قَدَرِهِ عِنْدَ اللَّهِ،

كَمَا أَخْبَرَنَا هُوَ بِفَضَائِلِ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّم أَجْمَعِينَ. وَلِهَذَا اتَّبَعَهُ بِقَوْلِهِ وَلَا فَخْرَ، كَمَا جَاءَ فِي رِوَايَةٍ. وَهَلْ يَقُولُ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ: أَنَّ مَقَامَ الَّذِي أُسْرِيَ بِهِ إِلَى رَبِّهِ وَهُوَ مُقَرَّبٌ مُعَظَّمٌ مُكَرَّمٌ - كَمَقَامِ الَّذِي أُلْقِيَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ وَهُوَ مُلِيمٌ؟! وَأَيُّ الْمُعَظَّمِ الْمُقَرَّبِ مِنَ الْمُتَمَتِّحِ الْمُؤَدَّبِ؟! فَهَذَا فِي غَايَةِ التَّقَرُّيبِ، وَهَذَا فِي غَايَةِ التَّأْدِيبِ. فَانْظُرْ إِلَى هَذَا الْاسْتِدْلَالِ، لِأَنَّهُ بِهَذَا الْمَعْنَى الْمُحَرَّفِ لِلْفِظِ لَمْ يَقُلْهُ الرَّسُولُ، وَهَلْ يُقَاوِمُ هَذَا الدَّلِيلُ عَلَى نَفْيِ عُلُوِّ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ

خَلَقَهُ الْأَدِلَّةُ الصَّحِيحَةُ الصَّرِيحَةُ الْقَطْعِيَّةُ عَلَى غُلُوِّ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى خَلْقِهِ، الَّتِي تَزِيدُ عَلَى أَلْفِ دَلِيلٍ، كَمَا يَأْتِي الْإِشَارَةُ إِلَيْهَا عِنْدَ قَوْلِ الشَّيْخِ رَحِمَهُ اللَّهُ (مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَهُ)، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

[ثَبُوتُ الْخُلَّةِ لِنَبِيِّنَا م]

قَوْلُهُ: (وَحَبِيبُ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

ش: ثَبِتَ لَهُ م أَعْلَى مَرَاتِبِ الْمَحَبَّةِ، وَهِيَ الْخُلَّةُ، كَمَا صَحَّ عَنْهُ م أَنَّهُ قَالَ: {إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا. وَقَالَ: وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنْ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ} (). وَالْحَدِيثَانِ فِي الصَّحِيحِ وَهُمَا يُبْطِلَانِ قَوْلَ مَنْ قَالَ: الْخُلَّةُ لِإِبْرَاهِيمَ وَالْمَحَبَّةُ لِمُحَمَّدٍ، فَإِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ اللَّهِ وَمُحَمَّدٌ حَبِيبُهُ. وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا: {إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى كُلِّ خَلِيلٍ مِنْ خُلَّتِهِ} (). وَالْمَحَبَّةُ قَدْ ثَبِتَتْ لغيرِهِ. قَالَ تَعَالَى (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ). (فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ).

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ). فَيُطْلَقُ قَوْلُ مَنْ خَصَّ الْخُلَّةَ بِإِبْرَاهِيمَ وَالْمَحَبَّةَ بِمُحَمَّدٍ، بِلِ الْخُلَّةِ خَاصَّةً بِهِمَا، وَالْمَحَبَّةَ عَامَّةً. وَحَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمُ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ الَّذِي فِيهِ: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلُ اللَّهِ، أَلَا وَأَنَا حَبِيبُ اللَّهِ وَلَا فَخْرَ}: لَمْ يَنْتَبْ.

[مَرَاتِبُ الْمَحَبَّةِ]

وَالْمَحَبَّةُ مَرَاتِبُ:

أَوَّلُهَا: الْعِلَاقَةُ، وَهِيَ تَعَلُّقُ الْقَلْبِ بِالْمَحْبُوبِ. وَالثَّانِيَةُ: الْإِرَادَةُ، وَهِيَ مَيْلُ الْقَلْبِ إِلَى مَحْبُوبِهِ وَطَلْبُهُ لَهُ. الثَّالِثَةُ: الصَّبَابَةُ، وَهِيَ انْصِبَابُ الْقَلْبِ إِلَيْهِ بِحَيْثُ لَا يَمْلِكُهُ صَاحِبُهُ، كَانْصِبَابِ الْمَاءِ فِي الْحُورِ.

الرَّابِعَةُ: الْغَرَامُ، وَهِيَ الْحُبُّ اللَّازِمُ لِلْقَلْبِ، وَمِنْهُ الْغَرِيمُ، لِمَلَازِمَتِهِ، وَمِنْهُ: (إِنْ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا)

الخَامِسَةُ: الْمَوَدَّةُ، وَالْوُدُّ، وَهِيَ صَفْوُ الْمَحَبَّةِ وَخَالِصُهَا وَلُبُّهَا، قَالَ تَعَالَى: (سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا)

السَّادِسَةُ: الشَّغْفُ، وَهِيَ وُصُولُ الْمَحَبَّةِ إِلَى شَغَافِ الْقَلْبِ. السَّابِعَةُ: الْعِشْقُ: وَهُوَ الْحُبُّ الْمُفْرَطُ الَّذِي يُخَافُ عَلَى صَاحِبِهِ مِنْهُ، وَلَكِنْ لَا يُوصَفُ بِهِ الرَّبُّ تَعَالَى وَلَا الْعَبْدُ فِي مَحَبَّةِ رَبِّهِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ أَطْلَقَهُ بَعْضُهُمْ. وَاخْتَلَفَ فِي سَبَبِ الْمَنْعِ، فَقِيلَ: عَدَمُ التَّوْقِيفِ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ. وَلَعَلَّ امْتِنَاعَ إِطْلَاقِهِ: أَنَّ الْعِشْقَ مَحَبَّةٌ مَعَ شَهْوَةٍ. الثَّامِنَةُ: النَّيْمُ، وَهُوَ بِمَعْنَى التَّعَبُّدِ ().

الثَّاسِعَةُ: التَّعَبُّدُ. الْعَاشِرَةُ: الْخُلَّةُ، وَهِيَ الْمَحَبَّةُ الَّتِي تَخَلَّتْ رُوحَ الْمُحِبِّ وَقَلْبُهُ. وَقِيلَ فِي تَرْتِيبِهَا غَيْرُ ذَلِكَ. وَهَذَا التَّرْتِيبُ تَقْرِيبٌ حَسَنٌ، يُعْرَفُ حُسْنُهُ بِالنَّظْمِ فِي مَعَانِيهِ.

وَأَعْلَمُ أَنَّ وَصَفَ اللَّهِ تَعَالَى بِالْمَحَبَّةِ وَالْخُلَّةِ هُوَ كَمَا يَلِيقُ بِجَلَالِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَظَمَتِهِ، كَسَائِرِ صِفَاتِهِ تَعَالَى، وَإِنَّمَا يُوصَفُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ بِالْإِرَادَةِ وَالْوُدِّ وَالْمَحَبَّةِ وَالْخُلَّةِ، حَسَبَمَا وَرَدَ النَّصُّ.

وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي تَحْدِيدِ الْمَحَبَّةِ عَلَى أَقْوَالٍ، نَحْوُ ثَلَاثِينَ قَوْلًا. وَلَا نَحْدُ الْمَحَبَّةَ بِحَدِّ أَوْضَحَ مِنْهَا، فَالْحُدُودُ لَا تَزِيدُهَا إِلَّا خَفَاءً. وَهَذِهِ الْأَشْيَاءُ الْوَاضِحَةُ لَا تَحْتَاجُ إِلَى تَحْدِيدٍ، كَالْمَاءِ وَالْهَوَاءِ وَالتُّرَابِ وَالْجُوعِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

[كُلُّ مَنْ ادَّعَى النُّبُوَّةَ بَعْدَهُ م كَاذِبٌ]

قَوْلُهُ: (وَكُلُّ دَعَاىِ النَّبُوَّةِ () بَعْدَهُ فَعَيٌّ وَهَوَى)

ش: لَمَّا ثَبِتَ أَنَّهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، عُلِمَ أَنَّ مَنْ ادَّعَى بَعْدَهُ النُّبُوَّةَ فَهُوَ كَاذِبٌ. وَلَا يَقَالُ: فَلَوْ جَاءَ الْمُدَّعِي لِلنُّبُوَّةِ بِالْمُعْجَزَاتِ الْخَارِقَةِ وَالْبَرَاهِينِ الصَّادِقَةِ كَيْفَ يَقَالُ بِتَكْذِيبِهِ؟ لِأَنَّا نَقُولُ: هَذَا لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يُوجَدَ، وَهُوَ مِنْ بَابِ فَرَضِ الْمَحَالِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا أَخْبَرَ أَنَّهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، فَمِنْ الْمَحَالِ أَنْ يَأْتِيَ مُدَّعِي النَّبُوَّةِ وَلَا يُظْهِرُ إِمَارَةً كَذِبِهِ فِي دَعْوَاهُ. وَالْعَيُّ: ضِدُّ الرِّشَادِ. وَالْهَوَى: عِبَارَةٌ عَنْ شَهْوَةِ النَّفْسِ. أَيُّ: أَنَّ تِلْكَ الدَّعَاىِ بِسَبَبِ هَوَى النَّفْسِ، لَا عَنْ دَلِيلٍ، فَتَكُونُ بَاطِلَةً.

() في المطبوعة " دعوة " وهو خطأ واضح .

[عُمُومٌ بِعَثْتِهِ م]

[عُمُومٌ بِعَثْتِهِ م لِلْإِنْسِ وَالْجِنِّ]

قَوْلُهُ: (وَهُوَ الْمُبْعُوثُ إِلَى عَامَّةِ الْجِنِّ وَكَافَّةِ الْوَرَى، بِالْحَقِّ وَالْهُدَى، وَبِالنُّورِ وَالضِّيَاءِ).

ش: أَمَّا كَوْنُهُ مَبْعُوثًا إِلَى عَامَّةِ الْجِنِّ، فَقَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ قَوْلِ الْجِنِّ: (يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ) وَكَذَا سُورَةُ الْجِنِّ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ أَيْضًا. قَالَ مُقَاتِلٌ: لَمْ يَبْعَثِ اللَّهُ رَسُولًا إِلَى الْإِنْسِ وَالْجِنِّ قَبْلَهُ. وَهَذَا قَوْلٌ بَعِيدٌ. فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ) وَالرُّسُلُ مِنَ الْإِنْسِ فَقَطْ، وَلَيْسَ مِنَ الْجِنِّ رَسُولٌ، كَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: الرُّسُلُ مِنْ بَنِي آدَمَ، وَمِنَ الْجِنِّ نُذُرٌ. وَظَاهِرُ قَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنِ الْجِنِّ: (إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى عَلَى أَنْ مُوسَى مُرْسَلٌ إِلَيْهِمْ أَيْضًا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ).

وَحَكَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ الضَّحَّاكِ بْنِ مُزَاحِمٍ: أَنَّهُ زَعَمَ أَنَّ فِي الْجِنِّ رُسُلًا، وَاحْتَجَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ. وَفِي الاسْتِذْلَالِ بِهَا عَلَى ذَلِكَ نَظَرٌ لِأَنَّهَا مُحْتَمَلَةٌ وَلَيْسَتْ بِصَرِيحَةٍ، وَهِيَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - كَقَوْلِهِ: (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ) وَالْمُرَادُ: مِنْ أَحَدِهِمَا.

وَأَمَّا كَوْنُهُ مَبْعُوثًا إِلَى كَافَّةِ الْوَرَى، فَقَدْ قَالَ: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) وَقَالَ تَعَالَى: (وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ) أَي: وَأُنْذِرْ مَنْ بَلَغَهُ. وَقَالَ تَعَالَى: (وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا).

وَقَالَ تَعَالَى: (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عِنْدَ رَبِّهِمْ) (الْآيَةُ. وَقَالَ تَعَالَى: (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: (وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ)) وَقَالَ {م} {أُعْطِيَتْ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةَ فَلْيُصَلِّ، وَأَجَلْتُ لِيَ الْغَنَائِمَ، وَلَمْ تَحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةُ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً } () ، أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ.

وَقَالَ {م} {لَا يَسْمَعُ بِي رَجُلٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ} () ، رَوَاهُ مُسْلِمٌ. وَكَوْنُهُ مَبْعُوثًا إِلَى النَّاسِ كَافَّةً مَعْلُومٌ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ بِالضَّرُورَةِ.

وَأَمَّا قَوْلُ بَعْضِ النَّصَارَى أَنَّهُ رَسُولٌ إِلَى الْعَرَبِ خَاصَّةً: فَظَاهِرُ الْبُطْلَانِ، فَإِنَّهُمْ لَمَّا صَدَّقُوا بِالرَّسَالَةِ لَزِمَهُمْ تَصْدِيقُهُ فِي كُلِّ مَا يُخْبِرُ بِهِ، وَقَدْ قَالَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً، وَالرَّسُولُ لَا يَكْذِبُ، فَلَزِمَ تَصْدِيقُهُ حَتْمًا، فَقَدْ أُرْسِلَ رُسُلُهُ وَبِعِثَتْ كُتُبُهُ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ إِلَى كِسْرَى وَقَيْصَرَ وَالنَّجَاشِيِّ وَالْمَقَوْسِ وَسَائِرِ مُلُوكِ الْأَطْرَافِ، يَدْعُو إِلَى الْإِسْلَامِ.

[اخْتِلَافُ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ فِي إِعْرَابِ "كَافَّةٍ"]

وَقَوْلُهُ: (وَكَافَّةُ الْوَرَى) فِي جَرِّ (كَافَّةٍ) نَظَرٌ، فَإِنَّهُمْ قَالُوا: لَمْ تُسْتَعْمَلْ كَافَّةٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ إِلَّا حَالًا، وَاخْتَلَفُوا فِي إِعْرَابِهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ) عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهَا حَالٌ مِنَ الْكَافِ فِي أَرْسَلْنَاكَ وَهِيَ اسْمٌ فَاعِلٌ وَالتَّاءُ فِيهَا لِلْمُبَالَغَةِ، أَي: إِلَّا كَافًا لِلنَّاسِ عَنِ الْبَاطِلِ، وَقِيلَ: هِيَ مَصْدَرٌ كَفَّ فِي الْمَطْبُوعَةِ "فِيهِ" بَدَلُ "فَهِيَ" وَلَا يَسْتَقِيمُ بِهَا سِيَاقُ الْكَلَامِ، فَهِيَ بِمَعْنَى كَفًّا أَي: إِلَّا أَنْ تَكْفُتَ النَّاسَ كَفًّا، وَوُقُوعُ الْمَصْدَرِ حَالًا كَثِيرٌ. الثَّانِي: أَنَّهَا حَالٌ مِنَ النَّاسِ. وَاعْتَرَضَ بِأَنَّ حَالَ الْمَجْرُورِ لَا يَتَقَدَّمُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ،

وَأُجِيبَ بِأَنَّهُ قَدْ جَاءَ عَنِ الْعَرَبِ كَثِيرًا فَوَجَبَ قَبُولُهُ، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، أَي: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا لِلنَّاسِ كَافَّةً. الثَّلَاثُ: أَنَّهَا صِفَةٌ لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ، أَي: إِرسَالُهُ كَافَّةً. وَاعْتَرَضَ بِمَا تَقَدَّمَ أَنَّهَا لَمْ تُسْتَعْمَلْ إِلَّا حَالًا.

وَقَوْلُهُ: (بِالْحَقِّ وَالْهُدَى وَبِالنُّورِ وَالضِّيَاءِ). هَذِهِ أَوْصَافُ مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الدِّينِ وَالشَّرْعِ الْمُؤَيَّدِ بِالْبَرَاهِينِ الْبَاهِرَةِ مِنَ الْقُرْآنِ وَسَائِرِ الْأَدِلَّةِ. وَالضِّيَاءُ: أَكْمَلُ مِنَ النُّورِ، قَالَ تَعَالَى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا).

المحاضرة السادسة

حَقِيقَةُ النَّفْسِ وَالرُّوحِ

وَقَدْ اخْتُلِفَ فِي حَقِيقَةِ النَّفْسِ مَا هِيَ ؟ وَهَلْ هِيَ جُزْءٌ مِنْ أَجْزَاءِ الْبَدَنِ ؟ أَوْ عَرَضٌ مِنْ أَعْرَاضِهِ ؟ أَوْ جِسْمٌ مُسَاكِنٌ لَهُ مُودَعٌ فِيهِ ؟ أَوْ جَوْهَرٌ مُجَرَّدٌ ؟ وَهَلْ هِيَ الرُّوحُ أَوْ غَيْرُهَا ؟ وَهَلِ الْأَمَّارَةُ، وَاللَّوَامَةُ، وَالْمُطْمَئِنَّةُ - نَفْسٌ وَاحِدَةٌ، أَمْ هِيَ ثَلَاثَةُ أَنْفُسٍ ؟ وَهَلْ تَمُوتُ الرُّوحُ، أَوْ الْمَوْتُ لِلْبَدَنِ وَحْدَهُ ؟ وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ تَحْتَمِلُ مُجَلَّدًا، وَلَكِنْ أَشِيرُ إِلَى الْكَلَامِ عَلَيْهَا مُخْتَصِرًا، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى:

فَقِيلَ: الرُّوحُ قَدِيمَةٌ، وَقَدْ أَجْمَعَتِ الرُّسُلُ عَلَى أَنَّهَا مُحَدَّثَةٌ مَخْلُوقَةٌ مَصْنُوعَةٌ مَرْبُوبَةٌ مُدَبَّرَةٌ. وَهَذَا مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ مِنْ دِينِهِمْ، أَنَّ الْعَالَمَ مُحَدَّثٌ، وَمَضَى عَلَى هَذَا الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ، حَتَّى نَبَغَتْ نَابِغَةٌ مِمَّنْ قَصَرَ فَهْمُهُ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَرَعِمَ أَنَّهَا قَدِيمَةٌ، وَاحْتَجَّ بِأَنَّهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، وَأَمْرُهُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ ! وَبَيَّنَّ اللَّهُ أَضَافَهَا إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: {قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي} وَبِقَوْلِهِ: {وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي} كَمَا أَضَافَ إِلَيْهِ عِلْمَهُ وَقُدْرَتَهُ وَسَمْعَهُ وَبَصَرَهُ وَيَدَهُ. وَتَوَقَّفَ آخَرُونَ.

وَاتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ. وَمِمَّنْ نَقَلَ الْإِجْمَاعَ عَلَى ذَلِكَ: مُحَمَّدُ بْنُ نَصْرِ الْمَرْوَزِي، وَابْنُ قُتَيْبَةَ وَغَيْرُهُمَا.

وَمِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَى أَنَّ الرُّوحَ مَخْلُوقَةً، قَوْلُهُ تَعَالَى: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} فَهَذَا عَامٌّ لَا تَخْصِيصَ فِيهِ بِوَجْهِ مَا، وَلَا يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ صِفَاتُ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّهَا دَاخِلَةٌ فِي مَسْمَى اسْمِهِ. فَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْإِلَهَ الْمُوصُوفُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، فَعِلْمُهُ وَقُدْرَتُهُ وَحَيَاتُهُ وَسَمْعُهُ وَبَصَرُهُ وَجَمِيعُ صِفَاتِهِ - دَاخِلٌ فِي مَسْمَى اسْمِهِ فَهُوَ سُبْحَانَهُ بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ الْخَالِقُ، وَمَا سِوَاهُ مَخْلُوقٌ، وَمَعْلُومٌ قَطْعًا أَنَّ الرُّوحَ لَيْسَتْ هِيَ اللَّهُ، وَلَا صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ، وَإِنَّمَا هِيَ مِنْ مَصْنُوعَاتِهِ.

وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا} وَقَوْلُهُ تَعَالَى لِرَكْرِيَا: {وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا}. وَالْإِنْسَانُ اسْمٌ لِرُوحِهِ وَجَسَدِهِ، وَالْخَطَابُ لِرَكْرِيَا، لِرُوحِهِ وَبَدَنِهِ، وَالرُّوحُ تُوصَفُ بِالْوَفَاةِ وَالْقَبْضِ وَالْإِمْسَاكِ وَالْإِرْسَالِ، وَهَذَا شَأْنُ الْمَخْلُوقِ الْمُحَدَّثِ.

وَأَمَّا اخْتِجَاجُهُمْ بِقَوْلِهِ: {قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي} - فَلَيْسَ الْمُرَادُ هُنَا بِالْأَمْرِ الطَّلَبُ، بَلِ الْمُرَادُ بِهِ الْمَأْمُورُ، وَالْمَصْدَرُ يُذَكِّرُ وَيُرَادُ بِهِ اسْمُ الْمَفْعُولِ، وَهَذَا مَعْلُومٌ مَشْهُورٌ.

المُضَافُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى نَوْعَانِ

وَأَمَّا اسْتِدْلَالُهُمْ بِإِضَافَتِهَا إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: {مِنْ رُوحِي} - فَيَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ الْمُضَافَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ نَوْعَانِ:

صِفَاتٌ لَا تَقُومُ بِأَنْفُسِهَا، كَالْعِلْمُ وَالْقُدْرَةُ وَالْكَلَامُ وَالسَّمْعُ وَالْبَصَرُ، فَهَذِهِ إِضَافَةٌ صِفَةٍ إِلَى الْمُوصُوفِ بِهَا، فَعِلْمُهُ وَكَلَامُهُ وَقُدْرَتُهُ وَحَيَاتُهُ صِفَاتٌ لَهُ، وَكَذَا وَجْهُهُ وَيَدُهُ سُبْحَانَهُ.

وَالثَّانِي: إِضَافَةُ أَعْيَانٍ مُنْفَصِلَةٍ عَنْهُ، كَالْبَنِيَّةِ وَالنَّاقَةِ وَالْعَبْدِ وَالرَّسُولِ وَالرُّوحَ، فَهَذِهِ إِضَافَةُ مَخْلُوقٍ إِلَى خَالِقِهِ، لَكِنَّهَا إِضَافَةٌ تَقْتَضِي تَخْصِيصًا وَتَشْرِيقًا، يَتَمَيَّزُ بِهَا الْمُضَافُ عَنْ غَيْرِهِ.

ماهية الروح

وَاخْتَلَفَ فِي الرُّوحِ: هَلْ هِيَ مَخْلُوقَةٌ قَبْلَ الْجَسَدِ أَمْ بَعْدَهُ؟ وَقَدْ تَقَدَّمَ عِنْدَ ذِكْرِ الْمِيثَاقِ الْإِشَارَةُ إِلَى ذَلِكَ.

وَاخْتَلَفَ فِي الرُّوحِ: مَا هِيَ؟ قِيلَ: هِيَ جِسْمٌ، وَقِيلَ: عَرَضٌ، وَقِيلَ: لَا نَدْرِي مَا الرُّوحُ، أَجَوْهَرٌ أَمْ عَرَضٌ؟ وَقِيلَ: لَيْسَ الرُّوحُ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ اعْتِدَالِ الطَّبَائِعِ الْأَرْبَعِ، وَقِيلَ: هِيَ الدَّمُ الصَّافِي الْخَالِصُ مِنَ الْكَذَرَةِ وَالْعُفُونَاتِ، وَقِيلَ: هِيَ الْحَرَارَةُ الْغَرِيزِيَّةُ، وَهِيَ الْحَيَاةُ، وَقِيلَ: هُوَ جَوْهَرٌ بَسِيطٌ مُنْبَعَثٌ فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ مِنَ الْحَيَوَانِ، عَلَى جِهَةِ الْإِعْمَالِ لَهُ وَالتَّدْبِيرِ، وَهِيَ عَلَى مَا وَصِفَتْ مِنَ الْإِنْبِسَاطِ فِي الْعَالَمِ غَيْرُ مُنْقَسِمَةِ الذَّاتِ وَالْبَيْنَةِ،

وَأَنَّهَا فِي كُلِّ حَيَوَانٍ الْعَالَمِ بِمَعْنَى وَاحِدٍ لَا غَيْرُ، وَقِيلَ: النَّفْسُ هِيَ النَّسِيمُ الدَّاخِلُ وَالْخَارِجُ بِالنَّفْسِ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ.

وَالنَّاسُ فِي مَسْمَى "الْإِنْسَانِ": هَلْ هُوَ الرُّوحُ فَقَطْ، أَوِ الْبَدَنُ فَقَطْ، أَوْ مَجْمُوعُهُمَا، أَوْ كُلُّ مِنْهُمَا؟ وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ الْأَرْبَعَةُ لَهُمْ فِي كَلَامِهِ: هَلْ هُوَ اللَّفْظُ، أَوِ الْمَعْنَى فَقَطْ، أَوْ هُمَا، أَوْ كُلُّ مِنْهُمَا؟ فَالْخِلَافُ بَيْنَهُمْ فِي النَّاطِقِ وَنُطْقِهِ. وَالْحَقُّ: أَنَّ الْإِنْسَانَ اسْمٌ لِهُمَا، وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى أَحَدِهِمَا بِقَرِينَةٍ، وَكَذَلِكَ الْكَلَامُ.

الْأَدِلَّةُ عَلَى أَنَّ النَّفْسَ جِسْمٌ مُخَالَفٌ بِالْمَاهِيَةِ لِلْجِسْمِ الْمَحْسُوسِ

وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَإِجْمَاعُ الصَّحَابَةِ وَأَدِلَّةُ الْعُقَلَاءِ: أَنَّ النَّفْسَ جِسْمٌ مُخَالَفٌ بِالْمَاهِيَةِ لِهَذَا الْجِسْمِ الْمَحْسُوسِ، وَهُوَ جِسْمٌ نُورَانِي غُلُوي، خَفِيفٌ حَيٌّ مُتَحَرِّكٌ، [يَنْفُذُ] فِي جَوْهَرِ الْأَعْضَاءِ، وَيَسْرِي فِيهَا سَرِيانَ الْمَاءِ فِي الْوَرْدِ، وَسَرِيانَ الدُّهْنِ فِي الرَّيْثُونِ، وَالنَّارِ فِي الْفَحْمِ. فَمَا دَامَتْ هَذِهِ الْأَعْضَاءُ صَالِحَةً لِقَبُولِ الْأَثَارِ الْفَائِضَةِ عَلَيْهَا مِنْ هَذَا الْجِسْمِ اللَّطِيفِ، بَقِيَ ذَلِكَ الْجِسْمُ اللَّطِيفُ سَارِيًّا فِي هَذِهِ الْأَعْضَاءِ، وَإِفَادَتَهَا هَذِهِ الْأَثَارُ، مِنْ الْجِسْمِ وَالْحَرَكَةِ الْإِرَادِيَّةِ، وَإِذَا فَسَدَتْ هَذِهِ، بِسَبَبِ اسْتِيلَاءِ الْأَخْلَاطِ الْعَلِيظَةِ عَلَيْهَا، وَخَرَجَتْ عَنْ قَبُولِ تِلْكَ الْأَثَارِ، فَارَقَ الرُّوحُ الْبَدَنَ، وَانْفَصَلَ إِلَى عَالَمِ الْأَرْوَاحِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا} الْآيَةُ. فَفِيهَا الْإِخْبَارُ بِتَوَفِّيهَِا وَإِمْسَاكِهَا وَإِرْسَالِهَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ فَفِيهَا بَسْطُ الْمَلَائِكَةِ أَيْدِيَهُمْ لِتَنَاوُلِهَا، وَوَصْفُهَا بِالْإِخْرَاجِ وَالْخُرُوجِ، وَالْإِخْبَارُ بِعَذَابِهَا ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَالْإِخْبَارُ عَنْ مَجِيئِهَا إِلَى رَبِّهَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ الْآيَةُ. فَفِيهَا الْإِخْبَارُ بِتَوَفِّي النَّفْسِ بِاللَّيْلِ، وَبَعَثِهَا إِلَى أَجْسَادِهَا بِالنَّهَارِ، وَتَوَفِّي الْمَلَائِكَةَ لَهَا عِنْدَ الْمَوْتِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّاتِي). فَفِيهَا وَصْفُهَا بِالرُّجُوعِ وَالْدُّخُولِ وَالرِّضَا

فَفِيهَا وَصْفُهَا بِالرُّجُوعِ وَالْدُّخُولِ وَالرِّضَا. وَقَالَ p {إِنَّ الرُّوحَ إِذَا قُبِضَ تَبِعَهُ الْبَصَرُ}. فِيهِ وَصْفُهُ بِالْقَبْضِ، وَأَنَّ الْبَصَرَ يَرَاهُ. وَقَالَ p فِي حَدِيثِ بِلَالٍ: {قَبِضَ أَرْوَاحُكُمْ [حِينَ شَاءَ] وَرَدَّهَا عَلَيْكُمْ حِينَ شَاءَ}. وَقَالَ p {نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ تَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ}. وَسَيَأْتِي فِي الْكَلَامِ عَلَى عَذَابِ الْقَبْرِ أُدْلَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْ خُطَابِ مَلِكِ الْمَوْتِ لَهَا، وَأَنَّهَا تَخْرُجُ تَسْبِيلَ كَمَا تَسْبِيلُ الْقَطْرَةِ مِنْ فِي السِّقَاءِ، وَأَنَّهَا تَصْعَدُ وَيُوجَدُ مِنْهَا [مِنْ الْمُؤْمِنِ] كَأَطْيَبِ رِيحٍ، وَمِنْ الْكَافِرِ كَأَنْتَنِ رِيحٍ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ. وَعَلَى ذَلِكَ أَجْمَعَ السَّلَفُ وَدَلَّ الْعَقْلُ، وَلَيْسَ مَعَ مَنْ خَالَفَ سِوَى الظُّنُونِ الْكَاذِبَةِ، وَالشُّبْهِ الْفَاسِدَةِ، الَّتِي لَا يُعَارِضُ بِهَا مَا دَلَّ عَلَيْهِ نُصُوصُ الْوَحْيِ وَالْأَدِلَّةُ الْعَقْلِيَّةُ.

الاختلاف في مسمى النفس والروح

وَأَمَّا اخْتِلَافُ النَّاسِ فِي مَسْمَى النَّفْسِ وَالرُّوحِ: هَلْ هُمَا مُتَعَايِرَانِ، أَوْ مُسَمَّاهُمَا وَاحِدٌ؟ فَالْتَّحَقِيقُ: أَنَّ النَّفْسَ تُطْلَقُ عَلَى أُمُورٍ، وَكَذَلِكَ الرُّوحُ، فَيَتَّحِدُ مَذْلُولُهُمَا تَارَةً، وَيَخْتَلِفُ تَارَةً. فَالنَّفْسُ تُطْلَقُ عَلَى الرُّوحِ، وَلَكِنْ غَالِبٌ مَا تُسَمَّى نَفْسًا إِذَا كَانَتْ مُتَّصِلَةً بِالْبَدَنِ، وَأَمَّا إِذَا أُخِذَتْ مُجَرَّدَةً فَتُسَمَّى الرُّوحَ أَغْلَبَ عَلَيْهَا. وَتُطْلَقُ عَلَى الدَّمِ، فِي الْحَدِيثِ: {مَا لَا نَفْسَ لَهُ سَائِلَةٌ لَا يُجَسُّ الْمَاءُ إِذَا مَاتَ فِيهِ}. وَالنَّفْسُ: الْعَيْنُ، يُقَالُ: أَصَابَتْ فَلَانًا نَفْسًا، أَيْ عَيْنًا. وَالنَّفْسُ: الذَّاتُ، (فَسَلَّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ) {وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ} وَنَحْوَ ذَلِكَ. وَأَمَّا الرُّوحُ فَلَا تُطْلَقُ عَلَى الْبَدَنِ، لَا بِإِنْفِرَادِهِ، وَلَا مَعَ النَّفْسِ. وَتُطْلَقُ الرُّوحُ عَلَى الْقُرْآنِ.

وعلى جبرائيل (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا). (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ). وَتُطْلَقُ الرُّوحُ عَلَى الْهَوَاءِ الْمُتَرَدِّدِ فِي بَدَنِ الْإِنْسَانِ أَيْضًا.

وَأَمَّا مَا يُؤَيِّدُ اللهَ بِهِ أَوْلِيَائِهِ، فهي رُوحٌ أخرى، كما قَالَ تعالى: (أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ). وَكَذَلِكَ الْقُوَى الَّتِي فِي الْبَدَنِ، فَإِنَّهَا أَيْضًا تُسَمَّى أَرْوَاحًا، فَيَقَالُ: الرُّوحُ الْبَاصِرُ، وَالرُّوحُ السَّامِعُ، وَالرُّوحُ الشَّمُّ. وَتُطْلَقُ الرُّوحُ عَلَى أَحْصَى مِنْ هَذَا كُلِّهِ، وَهُوَ: قُوَّةُ الْمَعْرِفَةِ باللهِ وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ وَمَحَبَّتِهِ وَانْبِعَاطُ الْهَمَّةِ إِلَى طَلَبِهِ وَإِرَادَتِهِ. وَنِسْبَةُ هَذِهِ الرُّوحِ إِلَى الرُّوحِ، كَنِسْبَةِ الرُّوحِ إِلَى الْبَدَنِ، [فَلِلْعَلْمِ] رُوحٌ، [وَلِلْإِحْسَانِ] رُوحٌ، [وَلِلْمَحَبَّةِ] رُوحٌ، [وَلِلتَّوَكُّلِ] رُوحٌ، [وَلِلصِّدْقِ] رُوحٌ، وَالنَّاسُ مُتَقَاوِثُونَ فِي هَذِهِ [الْأَرْوَاحِ]. فَمِنَ النَّاسِ مَنْ تَغْلِبُ عَلَيْهِ هَذِهِ الْأَرْوَاحُ فَيَصِيرُ [رُوحَانِيًا] () وَمِنْهُمْ مَنْ يَفْقِدُهَا أَوْ أَكْثَرَهَا فَيَصِيرُ أَرْضِيًّا بَهِيمِيًّا.

وَقَدْ وَقَعَ فِي كَلَامٍ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ ثَلَاثَةَ أَنْفُسٍ: مُطْمَئِنَّةً، وَلَوَامَةً، وَأَمَّارَةً، قَالُوا: وَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ تَغْلِبُ عَلَيْهِ هَذِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَغْلِبُ عَلَيْهِ هَذِهِ، كَمَا قَالَ تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ). (وَلَا أَفْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ). (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ).

النَّفْسُ وَاحِدَةٌ وَلَهَا صِفَاتٌ

وَالْتَحْقِيقُ: أَنَّهَا نَفْسٌ وَاحِدَةٌ، لَهَا صِفَاتٌ، فهي أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ، فَإِذَا عَارَضَهَا الْإِيمَانُ صَارَتْ لَوَامَةً، تَفْعَلُ الذَّنْبَ ثُمَّ تَلُومُ صَاحِبَهَا، وَتَلُومٌ بَيْنَ الْفِعْلِ وَالتَّرْكِ، فَإِذَا قَوِيَ الْإِيمَانُ صَارَتْ مُطْمَئِنَّةً. وَلِهَذَا قَالَ {مَنْ سَرَّتهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتُهُ سَيِّئَتُهُ فَهُوَ مُؤْمِنٌ}. وقوله: {لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ} ، الْحَدِيثُ.

الاختلاف في موت الروح

وَاخْتَلَفَ النَّاسُ: هَلْ تَمُوتُ الرُّوحُ أَمْ لَا ؟ فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: تَمُوتُ؛ لِأَنَّهَا نَفْسٌ، وَكُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةٌ الْمَوْتِ، وَقَدْ قَالَ تعالى: (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ). وَقَالَ تعالى: (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ). قَالُوا: وَإِذَا كَانَتْ الْمَلَائِكَةُ تَمُوتُ، فَالنَّفُوسُ الْبَشَرِيَّةُ أُولَى بِالْمَوْتِ. وَقَالَ آخَرُونَ: لَا تَمُوتُ الْأَرْوَاحُ، فَإِنَّهَا خُلِقَتْ لِلْبَقَاءِ، وَإِنَّمَا تَمُوتُ الْأَبْدَانُ. قَالُوا: وَقَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الدَّالَّةُ عَلَى نَعِيمِ الْأَرْوَاحِ وَعَذَابِهَا بَعْدَ الْمَفَارَقَةِ إِلَى أَنْ يُرْجِعَهَا اللهُ فِي أَجْسَادِهَا.

وَالصَّوَابُ أَنْ يَقَالَ: مَوْتُ النُّفُوسِ هُوَ مُفَارَقَتُهَا لِأَجْسَادِهَا وَخُرُوجُهَا مِنْهَا، فَإِنْ أُريدَ بِمَوْتِهَا هَذَا الْقَدْرُ، فهي ذَائِقَةٌ الْمَوْتِ، وَإِنْ أُريدَ أَنَّهَا تُعَذِّبُ وَتَقْنَى بِالْكُلِّيَّةِ، فهي لَا تَمُوتُ بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ، بَلْ هي بَاقِيَةٌ بَعْدَ خُلُقِهَا فِي نَعِيمٍ أَوْ فِي عَذَابٍ، كَمَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللهُ تعالى. وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ (لَا يَدُوفُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى) وَتِلْكَ الْمَوْتَةُ هي مُفَارَقَةُ الْأَرْوَاحِ لِلْأَجْسَادِ. وَأَمَّا قَوْلُ أَهْلِ النَّارِ (قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ) وقوله تعالى: (كَيْفَ تَكْفُرُونَ باللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) - فَالْمَرَادُ: أَنَّهُمْ كَانُوا أَمْوَاتًا وَهُمْ نُطْفَتْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ وَفِي أَرْحَامِ أُمَّهَاتِهِمْ، ثُمَّ أَحْيَاهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ، ثُمَّ أَمَاتَهُمْ، ثُمَّ يُحْيِيهِمْ يَوْمَ النُّشُورِ، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ إِمَاتَةٌ أَرْوَاحِهِمْ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِلَّا كَانَتْ ثَلَاثُ مَوْتَاتٍ.

وَصَعِقُ الْأَرْوَاحِ عِنْدَ النَّفْخِ فِي الصُّورِ لَا يَلْزِمُ مِنْهُ مَوْتُهَا، فَإِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جَاءَ اللهُ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِهِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِمَوْتٍ. وَسَيَأْتِي ذِكْرُ ذَلِكَ، إِنْ شَاءَ اللهُ تعالى. وَكَذَلِكَ صَعِقُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُنْ مَوْتًا، وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّ نَفْخَةَ الصَّعِقِ - واللهِ أَعْلَمُ - مَوْتُ كُلِّ مَنْ لَمْ يَذُقِ الْمَوْتَ قَبْلَهَا مِنَ الْخَلَائِقِ، وَأَمَّا مَنْ ذَاقَ الْمَوْتَ، أَوْ لَمْ يُكْتَبْ عَلَيْهِ الْمَوْتُ مِنَ الْحُورِ وَالْوُلَدَانِ وَغَيْرِهِمْ، فَلَا تَدُلُّ الْآيَةُ عَلَى أَنَّهُ يَمُوتُ مَوْتَةً ثَانِيَةً. واللهِ أَعْلَمُ.

عَذَابُ الْقَبْرِ وَنَعِيمُهُ

الإيمان بعذاب القبر ونعيمه

قوله: (وَبِعَذَابِ الْقَبْرِ لِمَنْ كَانَ لَهُ أَهْلًا، وَسُؤَالِ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ فِي قَبْرِهِ عَنْ رَبِّهِ وَدِينِهِ وَنَبِيِّهِ، عَلَى مَا جَاءَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعَنِ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ. وَالْقَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفْرِ النَّيِّرَانِ).

ش: قَالَ تَعَالَى: (وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ). وَقَالَ تَعَالَى: (فَذَرْنَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿45﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿46﴾) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ). وَهَذَا يُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِهِ عَذَابُهُمْ بِالْقَتْلِ وَغَيْرِهِ فِي الدُّنْيَا، وَأَنْ يُرَادَ بِهِ عَذَابُهُمْ فِي الْبَرْزَخِ، وَهُوَ أَظْهَرُ، لِأَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَاتَ وَلَمْ يُعَذَّبْ فِي الدُّنْيَا، أَوِ الْمُرَادُ أَعْمُ مِنْ ذَلِكَ.

وَعَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ τ قَالَ: {كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بَيْعِ الْعَرْقَدِ، فَأَتَانَا النَّبِيُّ μ فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ، كَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِنَا الطَّيْرَ، وَهُوَ يُلْحَدُ لَهُ، فَقَالَ: "أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ"، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: "إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي إِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ وَانْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، نَزَلَتْ إِلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ، كَأَنَّ عَلَى وُجُوهِهِمُ الشَّمْسَ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحُطُوطٌ مِنْ حُطُوطِ الْجَنَّةِ، فَجَلَسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، أَخْرِجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ"، قَالَ: "فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْفَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، حَتَّى يَأْخُذَهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَذَلِكَ الْحُطُوطِ، وَتَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْخَةٍ مِنْكَ وَجِدْتَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ"، قَالَ: "فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا، - يَعْنِي عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ -، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذِهِ الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ؟

فَيَقُولُونَ: فَلَانُ ابْنُ فَلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيَفْتَحُ لَهُ، فَيَسْبِغُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مَقْرَبُوهَا، إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يَنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللَّهُ، فَيَقُولُ اللَّهُ Y اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى. قَالَ: فَتَعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُخْلِصَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بَعَثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا عَلِمَكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ فَأَمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيَنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرَشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ، قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيِّهَا، وَيُفْسَخُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ، قَالَ: وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبَشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهَكَ الْوَجْهِ الَّذِي يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي". قَالَ: "وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةُ سُودَ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيُّهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، أَخْرِجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَغَضَبٍ، قَالَ: فَتَتَفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السُّقُودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنَّ رِيحَ خَبِيثَةٍ وَجِدْتَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا [الرُّوحُ الْخَبِيثُ].

فَيَقُولُونَ: فَلَانُ ابْنُ فَلَانٍ، بِأَفْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُ لَهُ، فَلَا يَفْتَحُ لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ μ (لَا تَفْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ) فَيَقُولُ اللَّهُ Y اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي [سَجِينٍ] () فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتَطْرَحُ رُوحُهُ طَرَحًا"، ثُمَّ قَرَأَ: (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) فَتَعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ [فَيُخْلِصَانِهِ] فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بَعَثَ فِيكُمْ، فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ، لَا أَدْرِي،

فَيَنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ، فَأَفْرَشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا، وَيَضِيقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ، حَتَّى تَخْتَلِفَ [فِيهِ] أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبَشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهَكَ الْوَجْهِ الَّذِي يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثِ، فَيَقُولُ رَبِّ لَا تَقِمِ السَّاعَةَ}. رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ، وَرَوَى النَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ أَوَّلَهُ، وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ وَأَبُو عَوَانَةَ الْإِسْفَرَايِينِي فِي صَحِيحَيْهِمَا، وَابْنُ جَبَانَ.

وَذَهَبَ إِلَى مُوجِبِ هَذَا الْحَدِيثِ جَمِيعُ أَهْلِ السَّنَةِ وَالْحَدِيثِ، وَلَهُ شَوَاهِدُ مِنَ الصَّحِيحِ.

فَذَكَرَ البخاري رحمه الله عَنْ سَعِيدٍ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: {إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، أَنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيَقْعِدَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ، مُحَمَّدٌ ﷺ ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعِدِكَ مِنَ النَّارِ أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ، فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا} . قَالَ قَتَادَةُ: وَرَوَى لَنَا: أَنَّهُ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ.

وفي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عَنْهُمَا: {أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِقَبْرَيْنِ، فَقَالَ: " إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَبِرُّ مِنَ الْيَوْلِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ "، فَدَعَا بِجَرِيدَةٍ رَطْبَةٍ، فَشَقَّهَا نِصْفَيْنِ، وَقَالَ: " لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَبْسُ" }

وفي صَحِيحِ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ {إِذَا فُيِّرَ أَحَدُكُمْ، أَوْ الْإِنْسَانُ، أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَرْقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا الْمُتَكَبِّرُ، وَلِلْآخَرِ: النُّكِيرُ} ، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ الْخ.

وَقَدْ تَوَاتَرَتْ الْأَخْبَارُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي ثُبُوتِ عَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ لِمَنْ كَانَ لِذَلِكَ أَهْلًا، وَسُئِلَ الْمَلَائِكَةُ، فَيَجِبُ اعْتِقَادُ ثُبُوتِ ذَلِكَ وَالْإِيمَانُ بِهِ، وَلَا يَتَكَلَّمُ فِي كَيْفِيَّتِهِ، إِذْ لَيْسَ لِلْعَقْلِ وَفُوفٌ عَلَى كَيْفِيَّتِهِ، لِكُونِهِ لَا عَهْدَ لَهُ بِهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ، وَالشَّرْعُ لَا يَأْتِي بِمَا تُحِيلُهُ الْعُقُولُ، وَلَكِنَّهُ قَدْ يَأْتِي بِمَا تَحَارُّ فِيهِ الْعُقُولُ. فَإِنَّ عَوْدَ الرُّوحِ إِلَى الْجَسَدِ لَيْسَ عَلَى الْوَجْهِ الْمَعْهُودِ فِي الدُّنْيَا، بَلْ تُعَادُ الرُّوحُ إِلَيْهِ إِعَادَةً غَيْرَ الْإِعَادَةِ الْمَأْلُوفَةِ فِي الدُّنْيَا.

المحاضرة السابعة

عَذَابُ الْقَبْرِ وَنَعِيمُهُ

الإيمان بعَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ

قوله: (وَبِعَذَابِ الْقَبْرِ لَمَنْ كَانَ لَهُ أَهْلًا، وَسُؤَالِ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ فِي قَبْرِهِ عَنْ رَبِّهِ وَدِينِهِ وَنَبِيِّهِ، عَلَى مَا جَاءَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَنِ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ. وَالْقَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفْرِ النَّيرانِ).

ش: قَالَ تَعَالَى: (وَحَاقَ بِالْإِنْسَانِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ). وَقَالَ تَعَالَى: (فَنَزَّلْنَاهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿45﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿46﴾) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ). وَهَذَا يُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِهِ عَذَابُهُمْ بِالْقَتْلِ وَغَيْرِهِ فِي الدُّنْيَا، وَأَنْ يُرَادَ بِهِ عَذَابُهُمْ فِي الْبَرَزَخِ، وَهُوَ أَظْهَرُ، لِأَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَاتَ وَلَمْ يُعَذَّبْ فِي الدُّنْيَا، أَوِ الْمُرَادُ أَعْمُ مِنْ ذَلِكَ.

وَعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: {كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الْغَرْقَدِ، فَأَتَانَا النَّبِيُّ ﷺ فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ، كَانَتْ عَلَى رُؤُوسِنَا الطَّيْرُ، وَهُوَ يُلْحَدُّ لَهُ، فَقَالَ: "أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ"، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: "إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي إِقْبَالٍ مِنَ الْأَجَرَةِ وَانْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، نَزَلَتْ إِلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ، كَانَتْ عَلَى وُجُوهِهِمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، فَجَلَسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، أَخْرِجِي إِلَى مَغْفَرَةِ مَنْ اللَّهُ وَرِضْوَانِ"، قَالَ: "فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقُطْرَةُ مِنْ فِي السَّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، حَتَّى يَأْخُذَهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَتَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةٍ مِنْكَ وَجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ"، قَالَ: "فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا، - يَعْنِي عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ -، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذِهِ الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ؟

فَيَقُولُونَ: فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهَوْا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيَفْتَحُ لَهُ، فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا، إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يَنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللَّهُ، فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى. قَالَ: فَتَعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ فَلَمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ صَدَّقَ عَبْدِي، فَأَفْرَشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ، قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيِّبِهَا، وَيُفَسِّحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ، قَالَ: وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرَّيْحِ، فَيَقُولُ: أَبَشِّرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ،

فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهَكَ الْوَجْهِ الَّذِي يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحِ، فَيَقُولُ: يَا رَبُّ، أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي". قَالَ: "وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْأَجَرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سَوْدُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ

الْخَبِيثَةَ، أَخْرَجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَغَضَبٍ، قَالَ: فَتَنَفَّرْتُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السُّفُودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةً عَيْنٍ، حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنَّ رِيحَ خَبِيثَةٍ وَجَدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَعُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَالٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا [الرُّوحُ الْخَبِيثُ].

فَيَقُولُونَ: فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ، بِأَفْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ) فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ أَكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي [سَجِينٍ] () فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتَطْرَحُ رُوحُهُ طَرَحًا "، ثُمَّ قَرَأَ: (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ [فِي جِلْسَانِهِ] فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ، فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ، لَا أَدْرِي،

فَيَنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ، فَأَفْرَشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسُمُومِهَا، وَيَضِيقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ، حَتَّى تَخْتَلِفَ [فِيهِ] أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبَشِيرُ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعِدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ، فَوَجْهَكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، فَيَقُولُ رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ. رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ، وَرَوَى النَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهٍ أَوَّلَهُ، وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ وَأَبُو عَوَانَةَ الْإِسْفَرَانِيُّ فِي صَحِيحَيْهِمَا، وَابْنُ جَبَانَ.

وَذَهَبَ إِلَى مُوجِبِ هَذَا الْحَدِيثِ جَمِيعُ أَهْلِ السَّنَةِ وَالْحَدِيثِ، وَلَهُ شَوَاهِدٌ مِنَ الصَّحِيحِ.

فَذَكَرَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ سَعِيدٍ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: [إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، أَنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيَقْعِدَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ، مُحَمَّدٌ ﷺ؟ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعِدِكَ مِنَ النَّارِ أَبْذَلِكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ، فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا]. قَالَ قَتَادَةُ: وَرَوَى لَنَا: أَنَّهُ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: [أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِقَبْرَيْنِ، فَقَالَ: "إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَبِرُّ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالْثَمِيمَةِ"، فَدَعَا بِجَرِيدَةٍ رَطْبَةٍ، فَسَقَّهَا نِصْفَيْنِ، وَقَالَ: "لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَبْسُ"]

وَفِي صَحِيحِ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ [إِذَا قُبِرَ أَحَدُكُمْ، أَوِ الْإِنْسَانُ، أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا الْمُنْكَرُ، وَلِلْآخَرِ: النَّكِيرُ]، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ الْخ.

وَقَدْ تَوَاتَرَتْ الْأَخْبَارُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي ثُبُوتِ عَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ لِمَنْ كَانَ لِذَلِكَ أَهْلًا، وَسُؤَالِ الْمَلَائِكَةِ، فَيجِبُ اعْتِقَادُ ثُبُوتِ ذَلِكَ وَالْإِيمَانُ بِهِ، وَلَا يَتَكَلَّمُ فِي كَيْفِيَّتِهِ، إِذْ لَيْسَ لِلْعَقْلِ وَقُوفٌ عَلَى كَيْفِيَّتِهِ، لِكُونِهِ لَا عَهْدَ لَهُ بِهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ، وَالشَّرْعُ لَا يَأْتِي بِمَا تُحِيلُهُ الْعُقُولُ، وَلَكِنَّهُ قَدْ يَأْتِي بِمَا تَحَارُّ فِيهِ الْعُقُولُ. فَإِنَّ عَوْدَ الرُّوحِ إِلَى الْجَسَدِ لَيْسَ عَلَى الْوَجْهِ الْمَعْهُودِ فِي الدُّنْيَا، بَلْ تُعَادُ الرُّوحُ إِلَيْهِ إِعَادَةً غَيْرَ الْإِعَادَةِ الْمَأْلُوفَةِ فِي الدُّنْيَا.

تَعَلُّقَاتُ الرُّوحِ بِالْبَدَنِ

فَالرُّوحُ لَهَا بِالْبَدَنِ خَمْسَةُ أَنْوَاعٍ مِنَ التَّعَلُّقِ، مُتَغَايِرَةٌ الْأَحْكَامُ:

أَحَدُهَا: تَعَلُّقُهَا بِهِ فِي بَطْنِ الْأُمِّ جَنِينًا.

الثَّانِي: تَعَلُّقُهَا بِهِ بَعْدَ خُرُوجِهِ إِلَى وَجْهِ الْأَرْضِ.

الثَّالِثُ: تَعَلُّقُهَا بِهِ فِي حَالِ النَّوْمِ، فَلَهَا بِهِ تَعَلُّقٌ مِنْ وَجْهِ، وَمُفَارَقَةٌ مِنْ وَجْهِ.

الرَّابِعُ: تَعَلُّقُهَا بِهِ فِي الْبَرَزَخِ، فَإِنَّهَا وَإِنْ فَارَقَتْهُ وَتَجَرَّدَتْ عَنْهُ فَإِنَّهَا لَمْ تَفَارِقْهُ فِرَاقًا كُلِّيًّا بِحَيْثُ لَا يَبْقَى لَهَا إِلَيْهِ التَّفَاقُتُ أَلْبَنَّةُ، فَإِنَّهُ وَرَدَ رَدُّهَا إِلَيْهِ وَقَدْ سَلَّمَ الْمُسْلِمُ، وَوَرَدَ أَنَّهُ يَسْمَعُ حَقْقَ نِعَالِهِمْ حِينَ يُؤْلُونَ عَنْهُ، وَهَذَا الرَّدُّ إِعَادَةٌ خَاصَّةٌ، لَا يُوجِبُ حَيَاةَ الْبَدَنِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

الخَامِسُ: تَعَلُّقُهَا بِهِ يَوْمَ بَعْثِ الْأَجْسَادِ، وَهُوَ أَكْمَلُ أَنْوَاعِ تَعَلُّقِهَا بِالْبَدَنِ، وَلَا نِسْبَةَ لِمَا قَبْلَهُ مِنْ أَنْوَاعِ التَّعَلُّقِ إِلَيْهِ، إِذْ هُوَ تَعَلُّقٌ لَا يَقْبَلُ الْبَدَنُ مَعَهُ مَوْتًا وَلَا نَوْمًا وَلَا فَسَادًا، فَالْتَّوَمُّ أَخُو الْمَوْتِ. فَتَأْمَلُ هَذَا يُزُحُّ عَنْكَ إِشْكَالَاتٌ كَثِيرَةٌ.

السُّؤَالُ فِي الْقَبْرِ لِلرُّوحِ وَالْجَسَدِ

وَأَيَسَ السُّؤَالُ فِي الْقَبْرِ لِلرُّوحِ وَحَدَهَا، كَمَا قَالَ ابْنُ حَزْمٍ وَغَيْرُهُ، وَأَفْسَدُ مِنْهُ قَوْلُ مَنْ قَالَ: أَنَّهُ لِلْبَدَنِ بِلَا رُوحٍ! وَالْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ تَرُدُّ الْقَوْلَيْنِ.

وَكَذَلِكَ عَذَابُ الْقَبْرِ يَكُونُ لِلنَّفْسِ وَالْبَدَنِ جَمِيعًا بِاتِّفَاقِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، تَنْعُمُ النَّفْسُ وَتُعَذَّبُ مُفَرَّدَةً عَنِ الْبَدَنِ وَمُتَّصِلَةً بِهِ.

وَأَعْلَمُ أَنَّ عَذَابَ الْقَبْرِ هُوَ عَذَابُ الْبَرَزَخِ، فَكُلُّ مَنْ مَاتَ وَهُوَ مُسْتَحِقٌّ لِلْعَذَابِ نَالَهُ نَصِيبُهُ مِنْهُ، فَبَرٍّ أَوْ لَمْ يُقْبَرْ، أَكَلَتْهُ السِّبَاعُ أَوْ اخْتَرَقَ حَتَّى صَارَ رَمَادًا وَنُسِفَ فِي الْهَوَاءِ، أَوْ صُلِبَ أَوْ غَرِقَ فِي الْبَحْرِ - وَصَلَ إِلَى رُوحِهِ وَبَدَنِهِ مِنَ الْعَذَابِ مَا يَصِلُ إِلَى الْمَقْبُورِ.

وَمَا وَرَدَ مِنْ إَجْلَاسِهِ وَاخْتِلَافِ أَضْلَاعِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ - فَيَجِبُ أَنْ يُفْهَمَ عَنِ الرَّسُولِ مَا مُرَّاهُ مِنْ غَيْرِ غُلُوٍّ وَلَا تَقْصِيرٍ، فَلَا يُحْمَلُ كَلَامُهُ مَا لَا يَحْتَمِلُهُ، وَلَا يُقْصَرُ بِهِ عَنْ مُرَادٍ مَا قَصَدَهُ مِنَ الْهُدَى وَالْبَيَانِ، فَكَمْ حَصَلَ بِإِهْمَالِ ذَلِكَ وَالْعُدُولِ عَنْهُ مِنَ الضَّلَالِ وَالْعُدُولِ عَنِ الصَّوَابِ - مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ. بَلْ سُوءُ الْفَهْمِ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ أَصْلٌ كُلِّ بَدْعَةٍ وَضَلَالَةٍ نَشَأَتْ فِي الْإِسْلَامِ، وَهُوَ أَصْلٌ كُلِّ خَطِيئَةٍ فِي الْفُرُوعِ وَالْأُصُولِ، وَلَا سِيَّمَا إِنْ أُضِيفَ إِلَيْهِ سُوءُ الْقَصْدِ. وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

الدُّورُ ثَلَاثَةٌ وَلِكُلِّ دَارٍ أَحْكَامٌ

فَالْحَاصِلُ أَنَّ الدُّورَ ثَلَاثَةٌ: دَارُ الدُّنْيَا، وَدَارُ الْبَرَزَخِ، وَدَارُ الْقَرَارِ. وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ دَارٍ أَحْكَامًا تَخْصُهَا، وَرَكَّبَ هَذَا الْإِنْسَانَ مِنْ بَدَنِ وَنَفْسٍ، وَجَعَلَ أَحْكَامَ الدُّنْيَا عَلَى الْأَبْدَانِ، وَالْأَرْوَاحِ تَبَعًا لَهَا، وَجَعَلَ أَحْكَامَ الْبَرَزَخِ عَلَى الْأَرْوَاحِ، وَالْأَبْدَانِ تَبَعًا لَهَا، فَإِذَا جَاءَ يَوْمُ حَشْرِ الْأَجْسَادِ وَقِيَامِ النَّاسِ مِنْ قُبُورِهِمْ - صَارَ الْحُكْمُ وَالنَّعِيمُ وَالْعَذَابُ عَلَى الْأَرْوَاحِ وَالْأَجْسَادِ جَمِيعًا. فَإِذَا تَأَمَّلْتَ هَذَا الْمَعْنَى حَقَّ التَّأَمُّلِ، ظَهَرَ لَكَ أَنَّ كَوْنَ الْقَبْرِ رَوْضَةً مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةً مِنْ حُفَرِ النَّارِ - مُطَابِقٌ لِلْعَقْلِ، وَأَنَّهُ حَقٌّ لَا مَرِيَّةَ فِيهِ، وَبِذَلِكَ يَتَمَيَّزُ الْمُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ غَيْرِهِمْ.

وَيَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ النَّارَ الَّتِي فِي الْقَبْرِ وَالنَّعِيمَ، لَيْسَتْ مِنْ جِنْسِ نَارِ الدُّنْيَا وَلَا نَعِيمِهَا، وَإِنْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى يَحْمِي عَلَيْهِ الثَّرَابَ وَالْحَجَارَةَ الَّتِي فَوْقَهُ وَتَحْتَهُ حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ حَرًّا مِنْ جَمْرِ الدُّنْيَا، وَلَوْ مَسَّهَا أَهْلُ الدُّنْيَا لَمْ يُحْسُوا بِهَا. بَلْ أَعْجَبُ مِنْ هَذَا أَنَّ الرَّجُلَيْنِ يُدْفَنُ أَحَدُهُمَا إِلَى جَنْبِ صَاحِبِهِ، وَهَذَا فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ

وَهَذَا فِي رَوْضَةٍ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، لَا يَصِلُ مِنْ هَذَا إِلَى جَارِهِ شَيْءٌ مِنْ حَرِّ نَارِهِ، وَلَا مِنْ هَذَا إِلَى جَارِهِ شَيْءٌ مِنْ نَعِيمِهِ. وَقُدْرَةُ اللَّهِ أَوْسَعُ مِنْ ذَلِكَ وَأَعْجَبُ، وَلَكِنَّ النَّفُوسَ مُوَلَّعَةً بِالْكَذِيبِ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ عِلْمًا. وَقَدْ أَرَانَا اللَّهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِهِ مَا هُوَ أَبْلَغُ مِنْ هَذَا بِكَثِيرٍ. وَإِذَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُطْلَعَ عَلَى ذَلِكَ بَعْضَ عِبَادِهِ أَطْلَعَهُ وَغَيَّبَهُ عَنْ غَيْرِهِ، وَلَوْ أَطْلَعَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ الْعِبَادَ كُلَّهُمْ لَزَالَتْ حِكْمَةُ التَّكْلِيفِ وَالْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ، وَلَمَّا تَدَافَنَ النَّاسُ، كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنْهُ {لَوْلَا أَنْ لَا تَدَافِنُوا لَدَعَوْتُ اللَّهُ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ مَا أَسْمَعُ} . وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْحِكْمَةُ مُنْتَفِيَةً فِي حَقِّ الْبَهَائِمِ سَمِعَتْ وَأَدْرَكَتْ.

سُّؤَالٌ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ

وَلِلنَّاسِ فِي سُّؤَالِ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ: هَلْ هُوَ خَاصٌّ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ أَمْ لَا - : ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: الثَّلَاثُ التَّوَقُّفُ، وَهُوَ قَوْلُ جَمَاعَةٍ، مِنْهُمْ أَبُو عَمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ، فَقَالَ: وَفِي حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُنْبَلَى فِي قُبُورِهَا} () - مِنْهُمْ مَنْ

يَرْوِيهِ " سُئِلَ "، وَ عَلَى هَذَا اللَّفْظِ يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْأُمَّةُ قَدْ خُصَّتْ بِذَلِكَ، وَ هَذَا أَمْرٌ لَا يَقْطَعُ بِهِ، وَيُظْهِرُ عَدَمَ الْإِخْتِصَاصِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَكَذَلِكَ اخْتَلَفَ فِي سُؤَالِ الْأَطْفَالِ أَيْضًا.

عَذَابُ الْقَبْرِ نَوْعَانِ

وَهَلْ يَدُومُ عَذَابُ الْقَبْرِ أَوْ يَنْقَطِعُ ؟ جَوَابُهُ أَنَّهُ نَوْعَانِ:

مِنْهُ مَا هُوَ دَائِمٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ). وَكَذَا فِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ فِي قِصَّةِ الْكَافِرِ: {ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى النَّارِ فَيَنْظُرُ إِلَى مَقْعَدِهِ فِيهَا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ} ، رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي بَعْضِ طُرُقِهِ. وَالنَّوْعُ الثَّانِي: أَنَّهُ مُدَّةٌ ثُمَّ يَنْقَطِعُ، وَهُوَ عَذَابُ بَعْضِ الْعَصَاةِ [الَّذِينَ] خَفَّتْ جَرَائِمُهُمْ، فَيُعَذَّبُ بِحَسَبِ جُرْمِهِ، ثُمَّ يَخَفَّفُ عَنْهُ، كَمَا تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ فِي الْمُمَحِّصَاتِ الْعَشْرَةِ .

المحاضرة الثامنة

الدُّورُ ثَلَاثَةٌ وَلِكُلِّ دَارٍ أَحْكَامٌ

الدُّورُ ثَلَاثَةٌ وَلِكُلِّ دَارٍ أَحْكَامٌ

فَالْحَاصِلُ أَنَّ الدُّورَ ثَلَاثَةٌ: دَارُ الدُّنْيَا، وَدَارُ الْبَرَزَخِ، وَدَارُ الْقَرَارِ. وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ دَارٍ أَحْكَامًا تَخْصُهَا، وَرَكَّبَ هَذَا الْإِنْسَانَ مِنْ بَدَنِ وَنَفْسٍ، وَجَعَلَ أَحْكَامَ الدُّنْيَا عَلَى الْأَبْدَانِ، وَالْأَرْوَاحِ تَبْعًا لَهَا، وَجَعَلَ أَحْكَامَ الْبَرَزَخِ عَلَى الْأَرْوَاحِ، وَالْأَبْدَانِ تَبْعًا لَهَا، فَإِذَا جَاءَ يَوْمُ حَشْرِ الْأَجْسَادِ وَفِيَامِ النَّاسِ مِنْ قُبُورِهِمْ - صَارَ الْحُكْمُ وَالنَّعِيمُ وَالْعَذَابُ عَلَى الْأَرْوَاحِ وَالْأَجْسَادِ جَمِيعًا. فَإِذَا تَأَمَّلْتَ هَذَا الْمَعْنَى حَقَّ التَّأَمُّلِ، ظَهَرَ لَكَ أَنَّ كَوْنَ الْقَبْرِ رَوْضَةً مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةً مِنْ حُفَرِ النَّارِ - مُطَابِقٌ لِلْعَقْلِ، وَأَنَّهُ حَقٌّ لَا مَرِيَةَ فِيهِ، وَبِذَلِكَ يَتَمَيَّزُ الْمُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ غَيْرِهِمْ.

وَيَحِبُّ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ النَّارَ الَّتِي فِي الْقَبْرِ وَالنَّعِيمَ، لَيْسَتْ مِنْ جِنْسِ نَارِ الدُّنْيَا وَلَا نَعِيمِهَا، وَإِنْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى يَحْمِي عَلَيْهِ التُّرَابَ وَالْحِجَارَةَ الَّتِي فَوْقَهُ وَتَحْتَهُ حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ حَرًّا مِنْ جَمْرِ الدُّنْيَا، وَلَوْ مَسَّهَا أَهْلُ الدُّنْيَا لَمْ يُحْسُوا بِهَا. بَلْ أَعْجَبُ مِنْ هَذَا أَنَّ الرَّجُلَيْنِ يُدْفَنُ أَحَدُهُمَا إِلَى جَنْبِ صَاحِبِهِ، وَهَذَا فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ. وَهَذَا فِي رَوْضَةٍ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، لَا يَصِلُ مِنْ هَذَا إِلَى جَارِهِ شَيْءٌ مِنْ حَرِّ نَارِهِ، وَلَا مِنْ هَذَا إِلَى جَارِهِ شَيْءٌ مِنْ نَعِيمِهِ. وَقُدْرَةُ اللَّهِ أَوْسَعُ مِنْ ذَلِكَ وَأَعْجَبُ، وَلَكِنَّ النَّفُوسَ مُوَلَّعةً بِالْكَذِيبِ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ عِلْمًا. وَقَدْ أَرَانَا اللَّهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِهِ مَا هُوَ أَبْلَغُ مِنْ هَذَا بكَثِيرٍ. وَإِذَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُطْلَعَ عَلَى ذَلِكَ بَعْضَ عِبَادِهِ أَطْلَعَهُ وَغَيَّبَهُ عَنْ غَيْرِهِ، وَلَوْ أَطْلَعَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ الْعِبَادَ كُلَّهُمْ لَزَالَتْ حِكْمَةُ التَّكْلِيفِ وَالْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ، وَلَمَّا تَدَافَقَ النَّاسُ، كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنْهُ {لَوْلَا أَنْ لَا تَدَافِقُوا لَدَعَوْتُ اللَّهُ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ مَا أَسْمَعُ} . وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْحِكْمَةُ مُنْتَفِيَةً فِي حَقِّ الْبَهَائِمِ سَمِعَتْ وَأَدْرَكَتْ.

سُؤَالٌ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ

وَلِلنَّاسِ فِي سُؤَالِ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ: هَلْ هُوَ خَاصٌّ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ أَمْ لَا - ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: الثَّلَاثُ التَّوَقُّفُ، وَهُوَ قَوْلُ جَمَاعَةٍ، مِنْهُمْ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ، فَقَالَ: وَفِي حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا} () - مِنْهُمْ مَنْ يَرْوِيهِ " سُئِلَ "، وَ عَلَى هَذَا اللَّفْظِ يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْأُمَّةُ قَدْ خُصَّتْ بِذَلِكَ، وَ هَذَا أَمْرٌ لَا يَقْطَعُ بِهِ، وَيُظْهِرُ عَدَمَ الْإِخْتِصَاصِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَكَذَلِكَ اخْتَلَفَ فِي سُؤَالِ الْأَطْفَالِ أَيْضًا.

وَسُؤَالُ الْقَبْرِ يَظْهَرُ مِنْ مَجْمَلِ النُّصُوصِ أَنَّهُ لَيْسَ خَاصًّا بِهَذِهِ الْأُمَّةِ.

عَذَابُ الْقَبْرِ نَوْعَانِ

وَهَلْ يَدُومُ عَذَابُ الْقَبْرِ أَوْ يَنْقَطِعُ ؟ جَوَابُهُ أَنَّهُ نَوَّعَانِ:

منه مَا هُوَ دَائِمٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ). وَكَذَا فِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ فِي قِصَّةِ الْكَافِرِ: {ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى النَّارِ فَيَنْظُرُ إِلَى مَقْعَدِهِ فِيهَا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ} ، رواه الإمام أحمد في بعض طرقه.

وَالنَّوْعُ الثَّانِي: أَنَّهُ مُدَّةٌ ثُمَّ يَنْقَطِعُ، وَهُوَ عَذَابُ بَعْضِ الْعُصَاةِ [الَّذِينَ] خَفَّتْ جَزَائِمُهُمْ، فَيُعَذَّبُ بِحَسَبِ جُرْمِهِ، ثُمَّ يَخَفَّفُ عَنْهُ، كَمَا تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ فِي الْمُمَحِّصَاتِ الْعَشْرَةِ .

الِاخْتِلَافُ فِي مُسْتَقَرِّ الْأَرْوَاحِ بَعْدَ الْمَوْتِ

وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي مُسْتَقَرِّ الْأَرْوَاحِ مَا بَيْنَ الْمَوْتِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ:

فَقِيلَ: أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْجَنَّةِ، وَأَرْوَاحُ الْكَافِرِينَ فِي النَّارِ.

وَقِيلَ: إِنَّ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ بِفَنَاءِ الْجَنَّةِ عَلَى بَابِهَا، يَأْتِيهِمْ مِنْ رَوْحِهَا وَنَعِيمِهَا وَرِزْقِهَا.

وَقِيلَ: عَلَى أَفْنِيَّةِ قُبُورِهِمْ.

وَقَالَ مَالِكٌ: بَلَّغَنِي أَنَّ الرُّوحَ مُرْسَلَةٌ، تَذْهَبُ حَيْثُ شَاءَتْ.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: بَلَّ أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ وَلَمْ يَزِيدُوا عَلَى ذَلِكَ.

وَقِيلَ: إِنَّ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْجَابِيَةِ مِنْ دِمَشْقَ، وَأَرْوَاحَ الْكَافِرِينَ بِبَرْهُوتَ بِئْرِ بِحَضْرَمَوْتَ !

وَقَالَ كَعْبٌ: أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ فِي عَلِّيَّينَ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، وَأَرْوَاحُ الْكَافِرِينَ فِي سِجِّينَ فِي الْأَرْضِ السَّابِعَةِ تَحْتَ خَدِّ إِبْلِيسَ !

وَقِيلَ: أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ بِبِئْرِ زَمْزَمَ، وَأَرْوَاحُ الْكَافِرِينَ بِبِئْرِ بَرْهُوتَ.

وَقِيلَ: أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ يَمِينِ آدَمَ، وَأَرْوَاحُ الْكُفَّارِ عَنْ شِمَالِهِ.

قَالَ ابْنُ حَزْمٍ وَغَيْرُهُ: مُسْتَقَرُّهَا حَيْثُ كَانَتْ قَبْلَ خَلْقِ أَجْسَادِهَا.

وَقَالَ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: أَرْوَاحُ الشُّهَدَاءِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَرْوَاحُ عَامَّةِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَفْنِيَّةِ قُبُورِهِمْ.

وَعَنْ ابْنِ شَهَابٍ أَنَّهُ قَالَ: بَلَّغَنِي أَنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ كَطَيْرٍ خُضِرَ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَعْدُو وَتَرْوَحُ إِلَى رِيَاضِ الْجَنَّةِ، تَأْتِي رَبَّهَا كُلَّ يَوْمٍ تُسَلِّمُ عَلَيْهِ.

وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: مُسْتَقَرُّهَا الْعَدَمُ الْمُحْضُ. وَهَذَا قَوْلُ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ النَّفْسَ عَرَضٌ مِنْ أَعْرَاضِ الْبَدَنِ، كَحَيَاتِهِ وَإِدْرَاكِهِ ! وَقَوْلُهُمْ مُخَالَفٌ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: مُسْتَقَرُّهَا بَعْدَ الْمَوْتِ أَبْدَانٌ أُخَرُ تُنَاسِبُ أَخْلَاقَهَا وَصِفَاتِهَا الَّتِي اكْتَسَبَتْهَا فِي حَالِ حَيَاتِهَا، فَتَصِيرُ كُلُّ رُوحٍ إِلَى بَدَنٍ حَيَوَانٍ يُشَاكِلُ تِلْكَ الرُّوحَ ! وَهَذَا قَوْلُ النَّتَاسُخِيَّةِ مُنْكَرِي الْمَعَادِ، وَهُوَ قَوْلٌ خَارِجٌ عَنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ كُلِّهِمْ. وَيَضِيقُ هَذَا الْمُخْتَصَرُ عَنْ بَسْطِ أدِلَّةِ هَذِهِ الْأَقْوَالِ وَالْكَلامِ عَلَيْهَا.

وَيَتَلَخَّصُ مِنْ أدِلَّتِهَا: أَنَّ الْأَرْوَاحَ فِي الْبَرَزَخِ مُتَفَاوِتَةٌ أَعْظَمَ تَفَاوُتٍ:

فَمِنْهَا: أَرْوَاحٌ فِي أَعْلَى عَلِّيَّينَ، فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى، وَهِيَ أَرْوَاحُ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ، وَهُمْ مُتَفَاوِتُونَ فِي مَنَازِلِهِمْ.

وَمِنْهَا: أَرْوَاحٌ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضِرَ، تَسْرَحُ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، وَهِيَ أَرْوَاحُ بَعْضِ الشُّهَدَاءِ، لَا كُلُّهُمْ، بَلْ مِنْ الشُّهَدَاءِ مَنْ تُحْبَسُ رُوحُهُ عَنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ لِذَيْنِ عَلَيْهِ. كَمَا فِي الْمُسْنَدِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ: {أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَا لِي إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: " الْجَنَّةُ "، فَلَمَّا وَلَّى، قَالَ: " إِلَّا الدِّينَ، سَارَنِي بِهِ [جَبْرِيلُ] () أَنْفَا } .

وَمِنْ الْأَرْوَاحِ مَنْ يَكُونُ مَحْبُوسًا عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الَّذِي قَالَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ {رَأَيْتُ صَاحِبَكُمْ مَحْبُوسًا عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ} ..

وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ مَحْبُوسًا فِي قَبْرِهِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ [مَحْبُوسًا] فِي الْأَرْضِ.

وَمِنْهَا أَرْوَاحٌ فِي تَنْوِيرِ الزُّنَاةِ وَالزَّوَانِي، وَأَرْوَاحٌ فِي نَهْرِ الدِّمِّ تَسْبُحُ فِيهِ وَتُثَقِّمُ الْحِجَارَةَ، كُلُّ ذَلِكَ تَشْهَدُ لَهُ السَّنَةُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَأَمَّا الْحَيَاةُ الَّتِي اخْتَصَّ بِهَا الشَّهِيدُ وَامْتَّازَ بِهَا عَنْ غَيْرِهِ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) وَقَوْلِهِ تَعَالَى: (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ) - [فَهِيَ]: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجْوَابِ طَيْرٍ خُضِرَ. كَمَا فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ {لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ - يَعْنِي يَوْمَ أُحُدٍ - جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجْوَابِ طَيْرٍ خُضِرَ، تَرُدُّ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ، وَتَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مُظَلَّلَةٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ} ، الْحَدِيثُ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ، وَبِمَعْنَاهُ فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ، رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

فَأَتَتْهُمْ لَمَّا بَدَلُوا أَبْدَانَهُمْ لِلَّهِ ﷻ حَتَّى أَتَلَفَهَا أَعْدَاؤُهُ فِيهِ، أَعَاضَهُمْ مِنْهَا فِي الْبَرَزِخِ أَبْدَانًا خَيْرًا مِنْهَا، تَكُونُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيَكُونُ نَعِيمُهَا بِوَاسِطَةِ تِلْكَ الْأَبْدَانِ أَكْمَلَ مِنْ تَنَعُّمِ الْأَرْوَاحِ الْمُجَرَّدَةِ عَنْهَا.

وَلِهَذَا كَانَتْ نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ فِي صُورَةِ طَيْرٍ، أَوْ كَطَيْرٍ، وَنَسَمَةُ الشَّهِيدِ فِي جَوْفِ طَيْرٍ. وَتَأَمَّلْ لَفْظَ الْحَدِيثَيْنِ، فَفِي الْمَوْطَأِ أَنَّ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ كَانَ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: {إِنَّ نَسَمَةَ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَغْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يُرْجِعَهُ اللَّهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ} ()؛ فَقَوْلُهُ: " نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ " نَعْمُ الشَّهِيدِ وَغَيْرِهِ، ثُمَّ خَصَّ الشَّهِيدَ بِأَنَّ قَالَ: {هِيَ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضِرَ}

وَمَعْلُومٌ أَنَّهَا إِذَا كَانَتْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ صَدَقَ عَلَيْهَا أَنَّهَا طَيْرٌ، فَتَدْخُلُ فِي عُمُومِ الْحَدِيثِ الْآخِرِ بِهَذَا الْإِغْتِبَارِ، فَتَصِيبُهُمْ مِنَ النَّعِيمِ فِي الْبَرَزِخِ أَكْمَلَ مِنْ تَصِيبِ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأَمْوَاتِ عَلَى فُرُشِهِمْ، وَإِنْ كَانَ الْمَيِّتُ [عَلَى فِرَاشِهِ] أَعْلَى دَرَجَةٍ مِنْ كَثِيرٍ مِنْهُمْ، [فَلَهُ] نَعِيمٌ يَخْتَصُّ بِهِ لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ مَنْ هُوَ دُونَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ، كَمَا رَوَى فِي السُّنَنِ. وَأَمَّا الشُّهَدَاءُ فَقَدْ شُوهِدَ مِنْهُمْ بَعْدَ مَدَدٍ مِنْ دَفْنِهِ كَمَا هُوَ لَمْ يَتَغَيَّرَ، فَيُحْتَمَلُ بَقَاؤُهُ كَذَلِكَ فِي ثَرْبَتِهِ إِلَى يَوْمِ مَحْشَرِهِ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ يَبْلَى مَعَ طُولِ الْمُدَّةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَكَأَنَّهُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - كَلَّمَا كَانَتْ الشَّهَادَةُ أَكْمَلَ، وَالشَّهِيدُ أَفْضَلَ، كَانَ بَقَاؤُهُ جَسَدِهِ أَطْوَلَ. .

الإيمان بالمعاد الإيمان بالبعث والجزاء

قوله: (وَتُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ وَجَزَاءِ الْأَعْمَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالْعَرْضِ وَالْحِسَابِ، وَقِرَاءَةِ الْكِتَابِ، وَالتَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَالصِّرَاطِ وَالْمِيزَانِ).

ش: الإيمان بالمعاد مما دلَّ عليه الكتابُ والسنة، وَالْعَقْلُ وَالْفِطْرَةُ السَّالِمَةُ. فَأَخْبَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنْهُ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَأَقَامَ الدَّلِيلَ عَلَيْهِ، وَرَدَّ عَلَى الْمُنْكَرِينَ، فِي غَالِبِ سُورِ الْقُرْآنِ.

وَذَلِكَ: أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ كُلَّهُمْ مُنْفِقُونَ عَلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، فَإِنَّ الْإِفْرَارَ بِالرَّبِّ عَامٌّ فِي بَنِي آدَمَ، وَهُوَ فِطْرِي، كُلُّهُمْ يُفِرُّ بِالرَّبِّ، إِلَّا مَنْ عَانَدَ، كَفَرَ عَوْنًا، بِخِلَافِ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَإِنَّ مُنْكَرِيهِ كَثِيرُونَ،

وَالْقُرْآنُ بَيِّنٌ مَعَآدَ النَّفْسِ عِنْدَ الْمَوْتِ، وَمَعَآدَ الْبَدَنِ عِنْدَ الْقِيَامَةِ الْكُبْرَى، فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ. وَهَؤُلَاءِ يُنْكِرُونَ الْقِيَامَةَ الْكُبْرَى، وَيُنْكِرُونَ مَعَآدَ الْأَبْدَانِ، وَيَقُولُ مَنْ يَقُولُ مِنْهُمْ: أَنَّهُ لَمْ يُخْبَرْ بِهِ إِلَّا مُحَمَّدٌ ^ص عَلَى طَرِيقِ التَّخْيِيلِ ! ! وَهَذَا كَذِبٌ، فَإِنَّ الْقِيَامَةَ الْكُبْرَى هِيَ مَعْرُوفَةٌ عِنْدَ الْأَنْبِيَاءِ، مِنْ آدَمَ إِلَى نُوحٍ، إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى وَغَيْرِهِمْ [عَلَيْهِمُ السَّلَامُ] .()

[وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ بِهَا] () مِنْ حِينِ أَهْبَطَ آدَمَ، فَقَالَ تَعَالَى: (قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (24) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ) وَلَمَّا قَالَ إِبْلِيسُ لِلْعَيْنِ: (قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (36) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (37) إِلَى يَوْمِ الْوَفْتِ الْمَعْلُومِ) .

وَأَمَّا نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (17) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا) .

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ) . إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ. وَقَالَ: (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ). وَقَالَ: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى) (الآية).

وَأَمَّا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَمَّا نَاجَاهُ: (إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (15) فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَزِدَیْ). بَلْ مُؤْمِنٌ آلَ فِرْعَوْنَ كَانَ يَعْلَمُ الْمَعَآدَ، وَإِنَّمَا آمَنَ بِمُوسَى، قَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْهُ: (يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ^ص وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

() إِلَى قَوْلِهِ: (يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ) إِلَى قَوْلِهِ: (أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ). وَقَالَ مُوسَى: (الْكُتُبُ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ ^ص).

وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ فِي قِصَّةِ الْبَقَرَةِ: (فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ^ص كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ).

وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ أَنَّهُ أَرْسَلَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، فِي آيَاتِ [مِنَ] الْقُرْآنِ، وَأَخْبَرَ عَنْ أَهْلِ النَّارِ أَنَّهُمْ إِذَا قَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا (أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ^ص قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا ^ص وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ)

وَهَذَا اعْتِرَافٌ مِنْ أَصْنَافِ الْكُفَّارِ الدَّاخِلِينَ جَهَنَّمَ أَنَّ الرُّسُلَ أَنْذَرْتَهُمْ لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا. فَجَمِيعُ الرُّسُلِ أَنْذَرُوا بِمَا أَنْذَرَ بِهِ خَاتَمُهُمْ مِنْ عُقُوبَاتِ الْمَذْنِبِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. فَعَامَّةُ سُورِ الْقُرْآنِ الَّتِي فِيهَا ذِكْرُ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، يُذَكِّرُ ذَلِكَ فِيهَا: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَأَمَرَ نَبِيِّهِ أَنْ يُقْسِمَ بِهِ عَلَى الْمَعَآدِ، فَقَالَ: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ^ص قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ ^ص) الْآيَاتِ. وَقَالَ تَعَالَى: (وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ ^ص قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ^ص وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ). وَقَالَ تَعَالَى: (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا ^ص قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ^ص وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ).

المحاضرة التاسعة

وَأَخْبَرَ عَنْ اقْتِرَابِهَا، فَقَالَ: (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ). (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَّعْرِضُونَ). (سَأَلَ) سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ) إِلَى أَنْ قَالَ: (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا).

وَدَّمَ الْمُكَذِّبِينَ بِالْمَعَادِ، فَقَالَ: (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا). (أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ). (بَلْ أَدَارِكْهُمْ فِي الْأَخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ). (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا) إِلَى أَنْ قَالَ: (وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ).

(إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ). (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمِّيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (97) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (98) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا). (وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (49) ﴿٥٠﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (50) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (51) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (52)).

فَتَأْمَلُ مَا أُجِيبُوا بِهِ عَنْ كُلِّ سُؤَالٍ عَلَى التَّفْصِيلِ: فَإِنَّهُمْ قَالُوا أَوَّلًا: (وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا) ؟ ! فَقِيلَ لَهُمْ فِي جَوَابِ هَذَا السُّؤَالِ: إِنَّ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّهُ لَا خَالِقَ لَكُمْ وَلَا رَبَّ لَكُمْ، فَهَلَّا كُنْتُمْ خَلْقًا لَا يُفْنِيهِ الْمَوْتُ، كَالْحِجَارَةِ وَالْحَدِيدِ وَمَا هُوَ أَكْبَرُ فِي صُدُورِكُمْ مِنْ ذَلِكَ ؟ ! فَإِنْ قُلْتُمْ: كُنَّا خَلْقًا عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ الَّتِي لَا تَقْبَلُ الْبَقَاءَ - فَمَا الَّذِي يَحُولُ بَيْنَ خَالِقِكُمْ وَمُنْشِئِكُمْ وَبَيْنَ إِعَادَتِكُمْ خَلْقًا جَدِيدًا؟!

وَلِلْحُجَّةِ تَفْذِيرٌ آخَرُ، وَهُوَ: لَوْ كُنْتُمْ مِنْ حِجَارَةٍ أَوْ حَدِيدٍ أَوْ خَلْقٍ أَكْبَرَ مِنْهُمَا، [فإنه] قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُفْنِيَكُمْ وَيُجِيلَ ذَوَاتَكُمْ، وَيَنْقُلَهَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَمَنْ يَقْدِرُ عَلَى النَّصْرِفِ فِي هَذِهِ الْأَجْسَامِ، مَعَ شِدَّتِهَا وَصَلَابَتِهَا، بِالْإِفْنَاءِ وَالْإِحَالَةِ - فَمَا الَّذِي يُعْجِزُهُ فِيمَا دُونَهَا ؟ ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ يَسْأَلُونَ [سُؤَالًا آخَرَ] بِقَوْلِهِمْ: (مَنْ يُعِيدُنَا) إِذَا اسْتَحَالَتْ جُسُومُنَا وَقَبِيتْ ؟ فَأَجَابَهُمْ بِقَوْلِهِ: (قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ). فَلَمَّا أَخَذَتْهُمْ الْحُجَّةُ، وَلَزِمَهُمْ حُكْمُهَا، انْتَقَلُوا إِلَى سُؤَالٍ آخَرَ يَتَعَلَّقُونَ بِهِ بِعِلَالِ الْمُنْقَطِعِ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ: (مَتَى هُوَ) ؟ فَأُجِيبُوا بِقَوْلِهِ: (عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا).

وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُ: (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ) إِلَى آخِرِ السُّورَةِ. فَلَوْ رَامَ أَعْلَمُ الْبَشَرِ وَأَفْصَحُهُمْ وَأَقْدَرُهُمْ عَلَى الْبَيَانِ، أَنْ يَأْتِيَ بِأَحْسَنَ مِنْ هَذِهِ الْحُجَّةِ، أَوْ بِمِثْلِهَا، بِالْفَاقِطِ شُبَاهِهِ هَذِهِ الْأَلْفَافِ فِي الْإِيْجَازِ وَوَضَحِ الْأَدْلَةِ (وَصِحَّةِ الْبُرْهَانِ - لَمَّا قَدَرَ. فإنه سبحانه افْتَتَحَ هَذِهِ الْحُجَّةَ بِسُؤَالٍ أَوْرَدَهُ مُلْجِدٌ، افْتَضَى جَوَابًا، فَكَانَ فِي قَوْلِهِ: (وَنَسِيَ خَلْقَهُ) [مَا وَفَى] بِالْجَوَابِ، وَأَقَامَ الْحُجَّةَ وَأَزَالَ الشُّبْهَةَ، [لَوْلَا مَا] () أَرَادَ سُبْحَانَهُ [مِنْ] () تَأْكِيدَ الْحُجَّةِ وَزِيَادَةَ تَقْرِيرِهَا - فَقَالَ: (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ) فَاحْتَجَّ بِالْإِبْدَاءِ عَلَى الْإِعَادَةِ، [وَبِالنَّشْأَةِ الْأُولَى] () عَلَى النَّشْأَةِ

الأخرى. إذْ كُلُّ عَاقِلٍ يَعْلَمُ [علما] () ضروريًا أنَّ مَنْ قَدَرَ على هذه [قَدَرَ على هذه] () وأنه لو كان عاجزًا عن الثانية لكان عن الأولى أعجزَ وأعجزَ.

وَلَمَّا كَانَ الْخَلْقُ يَسْتَلْزِمُ قُدْرَةَ الْخَالِقِ عَلَى الْمَخْلُوقِ، وَعِلْمَهُ بِتَفَاصِيلِ خَلْقِهِ - أَتْبَعَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: (وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ). فَهُوَ عَلِيمٌ بِتَفَاصِيلِ الْخَلْقِ الْأَوَّلِ وَجُزْئِيَّاتِهِ، وَمَوَادِّهِ وَصُورَتِهِ، فَكَذَلِكَ الثَّانِي. فَإِذَا كَانَ تَامَ الْعِلْمُ، كَامِلَ الْقُدْرَةِ، كَيْفَ يَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ أَنْ يُحْيِيَ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟. ثُمَّ أَكَّدَ الْأَمْرَ بِحُجَّةٍ قَاهِرَةٍ، وَبُرْهَانٍ ظَاهِرٍ، يَتَضَمَّنُ جَوَابًا عَنْ سُؤَالٍ مُلْحِدٍ آخَرَ يَقُولُ: الْعِظَامُ إِذَا صَارَتْ رَمِيمًا عَادَتْ طَبِيعَتُهَا بَارِدَةً يَابِسَةً، وَالْحَيَاةُ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مَادَّتُهَا وَحَامِلُهَا طَبِيعَتُهُ حَارَّةَ رَطْبَةٍ - بِمَا يَدُلُّ عَلَى أَمْرِ الْبَعْثِ، فِيهِ الدَّلِيلُ وَالْجَوَابُ، فَقَالَ: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ). فَأَخْبَرَ سَبْحَانَهُ بِإِخْرَاجِ هَذَا الْعُنْصُرِ، الَّذِي هُوَ فِي غَايَةِ الْحَرَارَةِ وَالْيَبُوسَةِ، مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ الْمُمْتَلِئِ بِالرُّطُوبَةِ وَالْبُرُودَةِ، فَالَّذِي يُخْرِجُ الشَّيْءَ مِنْ صِدِّهِ، وَتَنْقَادُ لَهُ مَوَادُّ الْمَخْلُوقَاتِ وَعَنَاصِرُهَا وَلَا تَسْتَعْصِي عَلَيْهِ - هُوَ الَّذِي يَفْعَلُ مَا أَنْكَرَهُ الْمُلْحِدُ وَدَفَعَهُ، مِنْ إِحْيَاءِ الْعِظَامِ وَهِيَ رَمِيمٌ.

ثُمَّ أَكَّدَ هَذَا بِالْأَدْلَةِ مِنَ الشَّيْءِ الْأَجَلِّ الْأَعْظَمِ، عَلَى الْأَيْسَرِ الْأَصْغَرِ، فَإِنَّ كُلَّ عَاقِلٍ يَعْلَمُ أَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى الْعَظِيمِ الْجَلِيلِ فَهُوَ عَلَى مَا دُونَهُ بِكَثِيرٍ أَقْدَرُ وَأَقْدَرُ، فَمَنْ قَدَرَ عَلَى حَمَلِ قِنْطَارٍ كَانَ عَلَى حَمَلِ أُوقِيَّةٍ أَشَدَّ اقْتِدَارًا، فَقَالَ: (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ) ؟ فَأَخْبَرَ أَنَّ الَّذِي أَبْدَعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، عَلَى [جَلَالَتِهِمَا] () وَعَظَمَ شَأْنَهُمَا، وَكَبَّرَ أَجْسَامَهُمَا، وَسَعَتَهُمَا، وَعَجِيبَ خَلْقَهُمَا - أَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ عِظَامًا قَدْ صَارَتْ رَمِيمًا، فَيَرْدُّهَا إِلَى حَالَتِهَا الْأُولَى. كَمَا قَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) وَقَالَ: (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ) فِي الْمَطْبُوعَةِ " قدر " بدل " كان " . ولا تستقيم بها العبارة .

ثُمَّ أَكَّدَ سَبْحَانَهُ ذَلِكَ وَبَيَّنَّه بَيِّنَاتٍ آخَرَ، وَهُوَ أَنَّهُ لَيْسَ فِعْلُهُ بِمَنْزِلَةِ غَيْرِهِ، الَّذِي يَفْعَلُ بِالْأَلَاتِ وَالْكُلْفَةِ، وَالنَّصَبِ وَالْمَشَقَّةِ، وَلَا يُمَكِّنُهُ الْإِسْتِقْلَالُ بِالْفِعْلِ، بَلْ لَا بُدَّ مَعَهُ مِنْ آلَةٍ وَمُعِينٍ، بَلْ يَكْفِي فِي خَلْقِهِ لِمَا يُرِيدُ أَنْ يَخْلُقَهُ وَيَكُونَهُ نَفْسُ إِرَادَتِهِ، وَقَوْلُهُ لِلْمُكُونِ: " كُنْ "، فَإِذَا هُوَ كَائِنْ كَمَا شَاءَهُ وَأَرَادَهُ.

ثُمَّ خَتَمَ هَذِهِ الْحُجَّةَ بِإِخْبَارِهِ أَنَّ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ بِيَدِهِ، فَيَتَصَرَّفُ فِيهِ بِفِعْلِهِ وَقَوْلِهِ (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ).

وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُ سَبْحَانَهُ: (أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَتْرَكَ سُدَى (36) أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (37) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (38) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (39) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (40)). فَاحْتَجَّ سَبْحَانَهُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَتْرُكُهُ مُهْمَلًا عَنِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَأَنَّ حِكْمَتَهُ وَقُدْرَتَهُ تَأْتِي ذَلِكَ أَشَدَّ الْإِبَاءِ .

كَمَا قَالَ تَعَالَى: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) إِلَى آخِرِ السُّورَةِ. فَإِنَّ مَنْ نَقَلَهُ مِنَ النُّطْفَةِ إِلَى الْعَلَقَةِ، ثُمَّ إِلَى الْمُضْغَةِ، ثُمَّ شَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، وَرَكَّبَ فِيهِ الْحَوَاسَّ وَالْفُؤَى، وَالْعِظَامَ وَالْمَنَافِعَ، وَالْأَعْصَابَ وَالرِّبَاطَاتِ الَّتِي هِيَ أَشَدُّهُ، وَأَحْكَمَ خَلْقَهُ غَايَةَ الْإِحْكَامِ، وَأَخْرَجَهُ عَلَى هَذَا الشَّكْلِ وَالصُّورَةِ، الَّتِي هِيَ أَتَمُّ الصُّورِ وَأَحْسَنُ الْأَشْكَالِ - كَيْفَ يَعْجُزُ عَنْ إِعَادَتِهِ وَإِنْشَائِهِ مَرَّةً ثَانِيَةً ؟ أَمْ كَيْفَ تَقْتَضِي حِكْمَتُهُ وَعِنَايَتُهُ أَنْ يَتْرُكَهُ سُدَى ؟ فَلَا يَلِيْقُ ذَلِكَ بِحِكْمَتِهِ، وَلَا تَعْجُزُ عَنْهُ قُدْرَتُهُ.

فَانْظُرْ إِلَى هَذَا الْإِحْتِجَاجِ الْعَجِيبِ، بِالْقَوْلِ الْوَجِيزِ، الَّذِي لَا يَكُونُ أَوْجَزَ مِنْهُ، وَالْبَيِّنِ الْجَلِيلِ، الَّذِي لَا يَتَوَهَّمُ أَوْضَحُ مِنْهُ، وَمَاخِذِهِ الْقَرِيبِ، الَّذِي لَا تَفُغُ الظُّنُونُ عَلَى أَقْرَبِ مِنْهُ.

المحاضرة العاشرة

وَكَمْ فِي الْقُرْآنِ مِنْ مِثْلِ هَذَا الْإِخْتِجَاجِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ) إِلَى أَنْ قَالَ: (وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ) . وقوله تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ) إِلَى أَنْ (ثُمَّ إِنكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ)

() . وَذَكَرَ قِصَّةَ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، وَكَيْفَ أَبْقَاهُمْ مَوْتَى ثَلَاثِمِائَةَ سَنَةٍ سَمْسِيَّةً، [وهي] (ثَلَاثِمِائَةَ وَتِسْعَ سِنِينَ قَمَرِيَّةً، وَقَالَ فِيهَا: وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا)

وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّ الْأَجْسَامَ مُرَكَّبَةٌ مِنَ الْجَوَاهِرِ الْمُفْرَدَةِ - لَهُمْ فِي الْمَعَادِ خَطُوطٌ وَاضْطِرَابٌ. وَهُمْ فِيهِ عَلَى قَوْلَيْنِ: مِنْهُمْ مَن يَقُولُ: تُعَدُّمُ الْجَوَاهِرُ ثُمَّ تُعَادُ. وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ: تُفَرَّقُ الْأَجْزَاءُ ثُمَّ تُجْمَعُ. فَأُورِدَ عَلَيْهِمُ الْإِنْسَانُ الَّذِي يَأْكُلُهُ حَيَوَانٌ، وَذَلِكَ [الْحَيَوَانُ] أَكَلَهُ إِنْسَانٌ، فَإِنْ أُعِيدَتْ تِلْكَ الْأَجْزَاءُ مِنْ هَذَا، لَمْ تُعَدْ مِنْ هَذَا ؟

وَأُورِدَ عَلَيْهِمْ: أَنَّ الْإِنْسَانَ يَتَحَلَّلُ دَائِمًا، فَمَازَا الَّذِي يُعَادُ ؟ أَهُوَ الَّذِي كَانَ وَقَتَ الْمَوْتِ ؟ فَإِنْ قِيلَ بِذَلِكَ، لَزِمَ أَنْ يُعَادَ عَلَى صُورَةٍ ضَعِيفَةٍ، وَهُوَ خِلَافُ مَا جَاءَتْ بِهِ النُّصُوصُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَيْسَ بَعْضُ الْأَبْدَانِ بِأَوْلَى مِنْ بَعْضٍ ! فَادَّعَى بَعْضُهُمْ أَنَّ فِي الْإِنْسَانِ أَجْزَاءً أَصْلِيَّةً لَا تَتَحَلَّلُ، وَلَا يَكُونُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ الْحَيَوَانِ الَّذِي أَكَلَهُ الثَّانِي ! وَالْعُقْلَاءُ يَعْلَمُونَ أَنَّ بَدَنَ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ كُلَّهُ يَتَحَلَّلُ، لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ بَاقٍ، فَصَارَ مَا ذَكَرُوهُ فِي الْمَعَادِ مِمَّا قَوَّى شُبُهَةَ الْمُتَفَلْسِيفَةِ فِي انْكَارِ مَعَادِ الْأَبْدَانِ.

وَالْقَوْلُ الَّذِي عَلَيْهِ السَّلَفُ وَجُمُهُورُ الْعُقْلَاءِ: أَنَّ الْأَجْسَامَ تَتَقَلَّبُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، فَتَسْتَحِيلُ ثَرَابًا، ثُمَّ يُنْشِئُهَا اللَّهُ نَشْأَةً أُخْرَى، كَمَا اسْتَحَالَ فِي النَّشْأَةِ الْأُولَى: فَإِنَّهُ كَانَ نُطْفَةً، ثُمَّ صَارَ عَلَقَةً، [ثُمَّ صَارَ مُضْغَةً] ثُمَّ صَارَ عِظَامًا وَلَحْمًا، ثُمَّ أَنْشَأَهُ خَلْقًا سَوِيًّا. فِي الْمَطْبُوعَةِ " ثُمَّ أَنْشَأَهَا " .

كَذَلِكَ الْإِعَادَةُ: يُعِيدُهُ اللَّهُ بَعْدَ أَنْ يَبْلَى كُلُّهُ إِلَّا عَجَبَ الذَّنْبِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَبْلَى إِلَّا عَجَبَ الذَّنْبِ، مِنْهُ خُلِقَ ابْنُ آدَمَ، وَمِنْهُ يَرْكَبُ} . وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: {إِنَّ السَّمَاءَ تُمَطَّرُ مَطَرًا كَمَنِي الرِّجَالِ، يَنْبُتُونَ فِي الْقُبُورِ كَمَا يَنْبُتُ النَّبَاتُ} . فَالْنَّسَائَتَانِ نَوْعَانِ تَحْتَ جِنْسٍ، يَتَفَقَّانِ وَيَتِمَّائِلَانِ مِنْ وَجْهِ، وَيَفْتَرِقَانِ وَيَتَنَوَّعَانِ مِنْ وَجْهِ. وَالْمَعَادُ هُوَ الْأَوَّلُ بَعِيْنِهِ، وَإِنْ كَانَ بَيْنَ لَوَازِمِ الْإِعَادَةِ وَلَوَازِمِ الْبَدَاءَةِ فَرْقٌ، فَعَجَبُ الذَّنْبِ هُوَ الَّذِي يَبْقَى، وَأَمَّا سَائِرُهُ فَيَسْتَحِيلُ، فَيُعَادُ مِنَ الْمَادَّةِ الَّتِي اسْتَحَالَ إِلَيْهَا. وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ رَأَى شَخْصًا وَهُوَ صَغِيرٌ، ثُمَّ رَأَاهُ وَقَدْ صَارَ شَيْخًا، عَلِمَ أَنَّ هَذَا هُوَ ذَلِكَ، مَعَ أَنَّهُ دَائِمًا فِي تَحَلُّلٍ وَاسْتِحَالَةٍ. وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ، فَمَنْ رَأَى شَجَرَةً وَهِيَ صَغِيرَةٌ، ثُمَّ رَأَاهَا كَبِيرَةً، قَالَ: هَذِهِ تِلْكَ. وَلَيْسَتْ صِفَةً تِلْكَ النَّشْأَةِ الثَّانِيَةِ مِمَّا تِلْكَ لِصِفَةِ هَذِهِ النَّشْأَةِ، حَتَّى يُقَالَ إِنَّ الصِّفَاتِ هِيَ الْمُغْيِرَةُ، لَا سَيِّمَا أَهْلُ الْجَنَّةِ إِذَا دَخَلُوهَا فَإِنَّهُمْ يَدْخُلُونَهَا عَلَى صُورَةِ آدَمَ، طَوْلُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا، وَرَوِيَ: أَنَّ عَرْضَهُ سَبْعَةٌ أَدْرَعٍ. وَتِلْكَ نَشْأَةٌ بَاقِيَةٌ غَيْرُ مُعَرَّضَةٍ لِلْأَفَاتِ، وَهَذِهِ النَّشْأَةُ قَائِمَةٌ مُعَرَّضَةٌ لِلْأَفَاتِ.

وقوله: " وَجَزَاءُ الْأَعْمَالِ " - قَالَ تَعَالَى: (مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ). (يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ). وَالَّذِينَ: الْجَزَاءُ، يُقَالُ: كَمَا تَدِينُ ثَدَانُ، أَيْ كَمَا تُجَازِي تُجَازِي، وَقَالَ تَعَالَى: (جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ). (جَزَاءٌ وَفَاقًا). (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ). (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَرْعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ) (89) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ). (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ). وَأَمْثَالُ ذَلِكَ.

وَقَالَ p فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ Y مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ: يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أَوْفَيْكُمْ بِهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيُحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ. وَسَيَأْتِي لِذَلِكَ زِيَادَةٌ بَيَانٍ عَنْ قَرِيبٍ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

الْإِيمَانُ بِالْعَرْضِ وَالْحِسَابِ وَقوله: " وَالْعَرْضُ وَالْحِسَابُ، وَقِرَاءَةُ الْكِتَابِ، وَالتَّوَابُ وَالْعِقَابُ " - قَالَ تَعَالَى: (فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ) (15) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (16) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (17) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ) إِلَى آخِرِ السُّورَةِ. (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (6) فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (7) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (8) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (9) وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (10) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (11) وَيَصْلَى سَعِيرًا (12) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (13) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (14) بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (15)).

(وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ). (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا)

(يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ تَوْبَرُوزًا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) إِلَى آخِرِ السُّورَةِ. (رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ) إِلَى قَوْلِهِ: (إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ). (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ).

وروى البخاري رحمه الله في صحيحه، عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ p قَالَ: {لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا هَلَكٌ} () ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (7) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا) فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ p {إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرْضُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ يُنَاقَشُ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا غَدَبٌ}. يعني أنه لو نَاقَشَ في حِسَابِهِ لِعَبِيدِهِ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى يَعْفُو وَيَصْفَحُ. وَسَيَأْتِي لِذَلِكَ زِيَادَةٌ بَيَانٍ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وفي الصحيح عَنْ النَّبِيِّ p أنه قَالَ: {إِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا مُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةِ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي، أَمْ جُوزِي بِصَعْقَةِ يَوْمِ الطُّورِ} ؟. وَهَذَا صَعَقٌ فِي مَوْقِفِ الْقِيَامَةِ، إِذَا جَاءَ اللَّهُ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَأَسْرَفَتِ الْأَرْضُ بِثُورِهِ، فَحِينَئِذٍ يُصْعَقُ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ.

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ تَصْنَعُونَ بِقَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ: {إِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ، فَأَجِدُ مُوسَى بَاطِشًا بِقَائِمَةِ الْعَرْشِ} ؟ قِيلَ: لَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا اللَّفْظَ قَدْ وَرَدَ هَكَذَا، وَمِنْهُ نَشَأَ الْإِشْكَالُ. وَلَكِنَّهُ دَخَلَ فِيهِ عَلَى الرَّاوي حَدِيثٌ فِي حَدِيثٍ، فَرَكَّبَ بَيْنَ اللَّفْظَيْنِ، فَجَاءَ هَذَانِ الْحَدِيثَانِ هَكَذَا: أَحَدُهُمَا: {إِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ} ، كَمَا تَقَدَّمَ، وَالثَّانِي: {أَنَا أَوَّلَ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} ، فَدَخَلَ عَلَى الرَّاوي هَذَا الْحَدِيثُ فِي الْآخِرِ. وَمِمَّنْ نَبَّهَ عَلَى هَذَا أَبُو الْحَجَّاجِ الْمَرْزِيُّ، وَبَعْدَهُ الشَّيْخُ شَمْسُ الدِّينِ ابْنُ الْقَيْمِ، وَشَيْخُنَا الشَّيْخُ عِمَادُ الدِّينِ ابْنُ كَثِيرٍ، رَجَمَهُمُ اللَّهُ.

وَكَذَلِكَ اشْتَبَهَ عَلَى بَعْضِ الرُّوَاةِ، فَقَالَ: " فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ كَانَ مِمَّنْ اسْتَنْتَى اللَّهُ Y " ؟ وَالْمَحْفُوظُ الَّذِي تَوَاطَأَتْ عَلَيْهِ الرُّوَايَاتُ الصَّحِيحَةُ هُوَ الْأَوَّلُ، وَعَلَيْهِ الْمَعْنَى الصَّحِيحُ، فَإِنَّ الصَّعَقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِتَجَلِّيِ اللَّهِ لِعِبَادِهِ إِذَا جَاءَ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ، فَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنْ كَانَ لَمْ يُصْعَقْ مَعَهُمْ، فَيَكُونُ قَدْ جُوزِي بِصَعْقَةِ يَوْمِ تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ فَجَعَلَهُ دَكًّا.

فَجَعَلَتْ صَعْفَةً هَذَا النَّجْلِي عَوْضًا عَنْ صَعْفَةِ الْخَلَائِقِ لِتَجَلِّي رَبِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. فَتَأَمَّلْ هَذَا الْمَعْنَى الْعَظِيمَ وَلَا تُهْمَلْهُ.

وروى الإمام أحمد، والترمذي، وأبو بكر بن أبي الدنيا، عن الحسن، قال: سمعتُ أبا موسى الأشعري يقول: قال رسول الله ﷺ {يُعَرِّضُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَ عَرَضَاتٍ، فَعَرَضَتَانِ جِدَالٌ وَمَعَاذِيرُ، وَعَرَضَةٌ تَطَايِيرُ الصُّحُفِ، فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، وَحُوسِبَ حَسَابًا يَسِيرًا، دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ، دَخَلَ النَّارَ} .

وَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا عَنْ ابْنِ الْمُبَارَكِ: أَنَّهُ أَشَدَّ فِي ذَلِكَ شِعْرًا:

وَطَارَتِ الصُّحُفُ فِي الْيَدَيِ مُنْشَرَّةً
فَكَيْفَ سَهْوُكَ وَالْأَنْبَاءُ وَاقِعَةً
أَفِي الْجَنَانِ وَفُوزٌ لَا انْقِطَاعَ لَهُ
تَهْوِي بِسَاكِنِهَا طَوْرًا وَتَرْفَعُهُمْ
طَالَ الْبُكَاءُ فَلَمْ يُرَحِّمْ تَضَرُّعُهُمْ
لِيَنْفَعِ الْعِلْمُ قَبْلَ الْمَوْتِ عَالِمَهُ

فِيهَا السَّرَائِرُ وَالْأَخْبَارُ تُطْلَعُ
عَمَّا قَلِيلٍ، وَلَا تَدْرِي بِمَا تَفْعُ
أَمِ الْجَحِيمِ فَلَا تُبْقِي وَلَا تَدْعُ
إِذَا رَجَوْا مَخْرَجًا مِنْ غَمِّهَا فَمِعُوا
فِيهَا، وَلَا رَقِيَّةَ تُغْنِي وَلَا جَزْعُ
قَدْ سَالَ قَوْمٌ بِهَا الرُّجْعَى فَمَا رَجَعُوا

وقوله " وَالصِّرَاطُ " - أي وَتُؤْمِنُ بِالصِّرَاطِ، وَهُوَ جِسْرٌ عَلَى جَهَنَّمَ، إِذَا انْتَهَى النَّاسُ بَعْدَ مُفَارَقَتِهِمْ مَكَانَ الْمَوْقِفِ إِلَى الظُّلْمَةِ الَّتِي دُونَ الصِّرَاطِ، كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: {إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سِئِلَ: أَيْنَ النَّاسُ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ؟ فَقَالَ: " هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ } . وفي هَذَا الْمَوْضِعِ يَفْتَرِقُ الْمُتَأَمِّلُونَ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَتَخَلَّفُونَ عَنْهُمْ، وَيَسْبِقُهُمُ الْمُؤْمِنُونَ، وَيُحَالُ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْوُصُولِ إِلَيْهِمْ.

وروى البيهقي بسنده، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: "يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"، إِلَى أَنْ قَالَ: " فَيُعْطُونَ نُورَهُمْ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ "، قَالَ: " فَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ مِثْلَ الْجَبَلِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ فَوْقَ ذَلِكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ مِثْلَ النُّخْلَةِ بِيَمِينِهِ،

وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى دُونَ ذَلِكَ بِيَمِينِهِ، حَتَّى يَكُونَ آخِرُ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ عَلَى إِبْهَامِ قَدَمِهِ، يَضِيءُ مَرَّةً وَيُطْفَأُ مَرَّةً، إِذَا أَضَاءَ قَدَمُ قَدَمِهِ، وَإِذَا طَفِئَ قَامَ "، قَالَ: " فَيَمُرُّ وَيَمُرُّ عَلَى الصِّرَاطِ، وَالصِّرَاطُ كَحَدِّ السِّيفِ، دَحْضٌ، مَزَلَةٌ، فَيَقَالُ لَهُمْ: امْضُوا عَلَى قَدْرِ نُورِكُمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَانْقِضَاضِ الْكَوْكَبِ، وَمِنْهُمْ كَالرَّيْحِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالطَّرْفِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَشَدِّ الرَّجْلِ، يَرْمِلُ رَمْلًا . فَيَمُرُّونَ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، حَتَّى يَمُرَّ الَّذِي نُورُهُ عَلَى إِبْهَامِ قَدَمِهِ، تَخِرُّ يَدُهُ، وَتَعْلَقُ يَدُهُ، وَتَخِرُّ رِجْلُهُ، وَتَعْلَقُ رِجْلُهُ، وَتَصِيبُ جَوَانِبَهُ النَّارُ " قَالَ: " فَيُخْلَصُونَ، فَإِذَا خَلَصُوا قَالُوا: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَانَا مِنْكَ بَعْدَ أَنْ أَرَانَاكَ، لَقَدْ أَعْطَانَا اللَّهُ مَا لَمْ يُعْطِ أَحَدٌ "،

مَعْنَى الْوُزُودِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى " وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا "

واختلف المفسرون في المراد بالورود المذكور في قوله تعالى: (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا) - ما هو ؟ والأظهر والأقوى أنه المرور على الصراط، قال تعالى: (ثُمَّ نُجِى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا). وفي الصحيح أنه ﷺ قال: {والذي نفسي بيده، لا يُلج النار أحد بايع تحت الشجرة "، قالت حفصة: فقلت: يا رسول الله، أليس الله يقول: (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا) ؟ فقال: ألم تسمعيه قال: (ثُمَّ نُجِى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا) أشار ﷺ إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها، وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله، بل تستلزم انعقاد سببه، فمن طلبه عدوه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه، يقال: نجاه الله منهم.

ولهذا قال تعالى: (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا) . (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا). و (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا). ولم يكن العذاب أصابهم، ولكن أصاب غيرهم، ولولا ما خصهم الله به من أسباب النجاة لأصابهم ما أصاب أولئك.

وكذلك حال الوارد في النار، يمرون فوقها على الصراط، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيا. فقد بين p في حديث جابر المذكور: أن الورود هو الورود على الصراط.

وروى الحافظ أبو نصر الوائلي () عن أبي هريرة r قال: قال p {علم الناس سنتي وإن كرهوا ذلك، وإن أحببت أن لا توقف على الصراط طرفة عين حتى تدخل الجنة، فلا تحدثن في دين الله حدثا برأيك} . أورده القرطبي.

وروى أبو بكر بن أحمد بن سليمان النجار، عن يعلى بن منية، عن رسول الله p قال: {تقول النار للمؤمن يوم القيامة: جز يا مؤمن، فقد أطفأ نورك لهبي} .

الإيمان بالميزان وحقيقته

وقوله: " والميزان " - أي: ونؤمن بالميزان. قال تعالى (وَنُضِعَ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا) وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ. وقال تعالى: (فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (102) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ).

قال القرطبي: قال العلماء: إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال؛ لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها. قال: وقوله: (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة) - يحتمل أن يكون ثم موازين متعددة توزن فيها الأعمال، ويحتمل أن يكون المراد الموزونات، فجمع باعتبار تنوع الأعمال الموزونة، والله أعلم.

والذي دلت عليه السنة: أن ميزان الأعمال له كفتان حسيّتان مشاهدتان. روى الإمام أحمد، من حديث أبي عبد الرحمن الحبلي، قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: قال رسول الله p {إن الله سيخلص رجلا من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا، كل سجل مد البصر، ثم يقول له: أتتكر من هذا شيئا ؟ أظلمت كتبتي الحافظون ؟ قال: لا يا رب. فيقول: ألك عذر أو حسنة ؟ فيبهت الرجل، فيقول: لا يا رب. فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم اليوم عليك. فتخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، فيقول: أحضروه. فيقول: يا رب، وما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال: إنك لا تظلم. قال: فتوضع السجلات في كفة، [والبطاقة في كفة]، قال: فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، ولا يثقل شيء بسم الله الرحمن الرحيم}. وهكذا رواه الترمذي، وابن ماجه، وابن أبي الدنيا، من حديث الليث، زاد الترمذي: {ولا يثقل مع اسم الله شيء}. وفي سياق آخر: {توضع الموازين يوم القيامة، فيؤتى بالرجل فيوضع في كفة} .

وفي هذا السياق فائدة جليلة، وهي: أن العامل يوزن مع عمله، ويشهد له ما روى البخاري عن أبي هريرة، عن النبي p قال: {إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة} قال: " اقرءوا إن شئتم: (فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا). وروى الإمام أحمد، عن ابن مسعود: {أنه كان يجني سواكا من الأراك، وكان دقيق الساقين، فجعلت الريح تكفه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله p " مم تضحكون " ؟ قالوا: يا نبي الله، من دقة ساقيه. فقال: والذي نفسي بيده، لهما أثقل في الميزان من أحد} .

وقد وردت الأحاديث أيضا بوزن الأعمال أنفسها، كما في صحيح مسلم، عن أبي مالك الأشعري، قال: قال رسول الله p {الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان} .

وفي الصحيح، وهو خاتمة كتاب البخاري، قوله p {كلمتان خفيفتان على اللسان، حبيبتان إلى الرحمن، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم} ().

وروى الحافظ أبو بكر البيهقي، عن أنس بن مالك τ عن النبي μ قال: {يؤتى بابن آدم يوم القيامة، فيوقف بين كفتي الميزان، ويوكل به ملك، فإن ثقل ميزانه، نادى الملك بصوت يسمع الخلائق: سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا. وإن خف ميزانه، نادى الملك بصوت يسمع الخلائق: شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدا}. .

فلا يلتفت إلى ملحد معاند يقول: الأعمال أعراض لا تقبل الوزن، وإنما يقبل الوزن الأجسام !! فإن الله يقلب الأعراض أجساما، كما تقدم.

وكما روى الإمام أحمد، عن أبي هريرة τ أن رسول الله μ قال: {يؤتى بالموت كبشا [أغثر] () فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون، ويقال: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون، ويرون أن قد جاء الفرج، فيذبح، ويقال: خلود لا موت}. . ورواه البخاري بمعناه. فثبت وزن الأعمال والعامل وصحائف الأعمال، وثبت أن الميزان له كفتان. والله تعالى أعلم بما وراء ذلك من الكيفيات.

فعلينا الإيمان بالغيب، كما أخبرنا الصادق μ من غير زيادة ولا نقصان.

ويا خيبة من ينفي وضع الموازين القسط ليوم القيامة كما أخبر الشارع، لخفاء الحكمة عليه، ويقدح في النصوص بقوله: لا يحتاج إلى الميزان إلا البقال والفوال !! وما أحراه بأن يكون من الذين لا يقيم الله لهم يوم القيامة وزنا.

ولو لم يكن من الحكمة في وزن الأعمال إلا ظهور عدله سبحانه لجميع عباده، فإنه لا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين. فكيف ووراء ذلك من الحكم ما لا اطلاع لنا عليه. فتأمل قول الملائكة، لما قال الله لهم (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۚ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ). وقال تعالى: (وَمَا أَوْتِيْتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا).

وقد تقدم عند ذكر الحوض كلام القرطبي رحمه الله، أن الحوض قبل الميزان، والصراط بعد الميزان. ففي الصحيحين: {أن المؤمنين إذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض، فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة}. . وجعل القرطبي في التذكرة هذه القنطرة صراطا ثانيا للمؤمنين خاصة، وليس يسقط منه أحد في النار، والله تعالى أعلم.

المحاضرة الحادية عشر

مراجعة على المحاضرات السابقة

• الإيمان بالملائكة، ويتضمن:

1- تعريف الملائكة.

2- ذكر الملائكة في القرآن والسنة.

3- بعض أصناف الملائكة.

4- المفاضلة بين الملائكة وصالحى البشر.

الكتاب والسنة أصل التلقى عند أهل السنة :

أصول تلقي الاعتقاد عند أهل السنة ومخالفهم تنفرع إلى خمسة مناهج:

1- المنهج النقلى.

2- المنهج العقلى.

3- المنهج الذوقى.

4- المنهج العاطفى.

5- المنهج السرى.

أركان الإيمان ومكانتها.

أركان الإيمان وأصوله عند أهل السنة والجماعة ستة ورد ذكر بعضها في خواتيم سورة البقرة ، ولهذا كانت الآيتان من آخر سورة البقرة – لما تضمنتا

هذا الأصل- لهما شأن عظيم ليس لغيرهما: ففي الصحيحين عن أبي مسعود رضى الله عنه قال : قال النبى p(من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه) قال ابن القيم رحمه الله في كتابه الوابل الصيب: معنى كفتاه أي: من شر ما يؤذيه.

أركان الإيمان ومكانتها:

ومما ورد في فضل هاتين الآيتين ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (بينما جبريل قاعد عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ سمع نقيضا من فوقه فرفع رأسه فقال : (هذا باب فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه ملك فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم فسلم ، وقال أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك ، فاتحة الكتاب وخواتيم البقرة ، لن تقرأ بحرف منها الا أعطيته)

الإيمان بالملائكة:

أولاً/ تعريف الملائكة. قال الطحاوي رحمه الله : (ونؤمن بالملائكة والنبیین...) ملك أصلها مألك من الألوكه، وهي الرسالة.

والملائكة هم رسل الله في خلقه وأمره، وسفراؤه بينه وبين عباده، ينزلون بالأمر من عنده في أقطار العالم، ويصعدون إليه بالأمر.

ليس لهم من الأمر شيء، بل الأمر كله لله الواحد القهار، وهم ينفذون أمره { لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون }
ثانياً/ ذكر الملائكة في القرآن والسنة

القرآن الكريم مملوء بذكر الملائكة وأصنافهم ومراتبهم، وكذلك الأحاديث النبوية طافحة بذكرهم . فلهذا كان الإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان وأصوله العظام.

قال تعالى: { شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم.. }

وقال تعالى: { هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور.. }.

وقال تعالى: { وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم.. } وقال تعالى : { كرام بررة }.

وغيرها من الآيات التي يقرن الله تعالى اسمه باسمهم، وصلاته بصلاتهم، ويضيفهم إليه في مواضع التشريف، ويصفهم بالكرم والطهارة والإخلاص.

ثالثاً: بعض أصناف الملائكة

وكل الله سبحانه ملائكة بالجمال، وملائكة بالسحاب والمطر، وملائكة بحفظ أعمال العباد، وملائكة بالرحم، وملائكة بالموت، وملائكة بالسؤال في القبر

ورؤساء الملائكة ثلاثة – الموكلون بالحياة- :

جبريل: الموكل بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح.

ميكائيل: الموكل بالقطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان.

إسرافيل: الموكل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم.

تتمة أصناف الملائكة:

قال الطحاوي : (ونؤمن بالكرام الكاتبين، فإن الله قد جعلهم علينا حافظين)

قال تعالى: { وإن عليكم لحافظين، كراماً كاتبين، يعلمون ما تفعلون }

جاء في التفسير: اثنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال، وملكان يحفظانه، واحد من ورائه، وواحد من أمامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار ، وأربعة آخرين بالليل، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه.

تتمتع أصناف الملائكة والملائكة تكتب القول والفعل، وكذلك النية لأنها فعل القلب، ويشهد لذلك قوله p: (قال الله عز وجل: إذا همَّ عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها عليه سيئة، وإذا همَّ عبدي بحسن فلم يعملها فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها عشراً) أخرجه البخاري ومسلم.

قال الطحاوي: (ونؤمن بملك الموت الموكل بقبض أرواح العالمين)

قال تعالى : { قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون }

رابعاً: المفاضلة بين الملائكة وصالحي البشر:

قد تكلم الناس في المفاضلة بين الملائكة وصالحي البشر، وليس الواجب علينا أن نعتقد أي الفريقين أفضل ولكن نسب إلى أهل السنة تفضيل صالحي البشر أو الأنبياء فقط على الملائكة

الإيمان بالكتب المنزلة – الإيمان بالرسول

• الإيمان بالكتب المنزلة على المرسلين

• عدم الجدل في القرآن

• اللوازم الباطلة على القول بخلق القرآن.

• الإيمان بالرسول إجمالاً، وبمن سمي الله في كتابه تفصيلاً.

• أبحاث في النبوة والرسالة

(الفرق بين النبي والرسول- إثبات النبوة- بين النبوة والولاية)

الإيمان بالكتب المنزلة على المرسلين:

قال الطحاوي رحمه الله : (ونؤمن بالملائكة والنبیین، والكتب المنزلة على المرسلين، ونشهد أنهم كانوا على الحق المبين)

نؤمن بما سمي الله تعالى من الكتب المنزلة على المرسلين في كتابه، من التوراة والإنجيل والزيور، ونؤمن بأن الله تعالى سوى ذلك كتباً أنزلها على أنبيائه، لا يعرف أسماءها وعددها إلا الله.

ويزيد الإيمان بالقرآن على غيره من الكتب:

الإقرار به، واتباع ما فيه

قال تعالى: {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا..}

عدم الجدل في القرآن:

قال الطحاوي رحمه الله : (ولا نجادل في القرآن، ونشهد أنه كلام رب العالمين، نزل به الروح الأمين، فعلمه سيد المرسلين محمداً صلى الله عليه وعل آله أجمعين وهو كلام الله تعالى، لا يساويه شيء من كلام المخلوقين)

لأنجادل في القرآن: أي لا نقول فيه كما قال أهل الزيغ واختلفوا وجادوا بالباطل ليدحضوا (ليزيلوا) به الحق، كما لا نجادل في القراءات الثابتة، بل نقروءه بكل ما ثبت وصح. وقوله (نزل به الروح الأمين): مأخوذة من آية سورة الشعراء والروح الأمين : هو جبريل عليه السلام، سمي روحاً لأنه حامل الوحي الذي به حياة القلوب.

اللوازم الباطلة على القول بخلق القرآن :

قال الطحاوي رحمه الله : (ولا نقول بخلقه، ولا نخالف جماعة المسلمين)

المعتزلة هم من قال بخلق القرآن ، وبهذه المسألة حصلت المحنة لإمام السنة أحمد بن حنبل رحمه الله.

ويلزم على القول بخلق القرآن اللوازم الباطلة الآتية:

1- إنكار صفة الكلام لله عز وجل.

2- أن القرآن يجوز نقده ووصفه بالتحريف والزيادة والنقصان.

3- إبطال دلالة القرآن وإسقاط مرجعية النص القرآني لأنه أمر الله وليس خلقه حيث إن الأمر يكون عن طريق الكلام.

الإيمان بالرسول إجمالاً، وبمن سمى الله في كتابه تفصيلاً

قال الطحاوي رحمه الله : (ونؤمن بالملائكة والنبیین..)

علينا الإيمان بمن سمى الله تعالى في كتابه من رسله، والإيمان بأن الله تعالى أرسل رسلاً سواهم وأنبياء، علينا الإيمان بهم جملة لأنه لم يأت في عددهم نص. قال تعالى : { ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك.. }.

ومما يجب في هذا الباب أيضاً الإيمان بأنهم بلغوا جميع ما أرسلوا به، وبينوه أتم البيان.

وأما الإيمان بنبيينا محمد ﷺ فتصديق واتباع ما جاء به من الشرائع إجمالاً وتفصيلاً

عدم التفريق بين أحد من رسل الله:

قال الطحاوي رحمه الله : (ونحن مؤمنون بذلك كله، لا نفرق بين أحد من رسله، ونصدقهم كلهم على ما جاؤوا به)

من آمن ببعض الرسل وكفر ببعض، كفر بالكل، قال تعالى: { ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً، أولئك هم الكافرون حقاً.. }.

أبحاث في النبوة والرسالة:

أولاً/ الفرق بين النبي والرسول:

قال الطحاوي رحمه الله : (وإن محمداً عبده المصطفى، ونبيه المجتبي، ورسوله المرتضى)

ذكروا فروقاً بين النبي والرسول، وأحسنها: ما اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه النبوات، وهو:

أن النبي من أوحى إليه، ويبلغ ما أوحى إليه لكنه لم يرسل إلى قوم كافرين. قال تعالى : { وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي.. }

فذكر أن الإرسال يعم الرسول والنبي.

أبحاث في النبوة والرسالة:

والرسول من أرسل إلى قوم كفار يدعوهم للتوحيد، فنوح أول الرسل ، وكان قبله أنبياء كآدم وشيث وإدريس عليهم السلام.

وليس شرطاً أن يأتي بشريعة جديدة، كيوسف عليه السلام كان رسولاً، وكان على ملة إبراهيم.

أبحاث في النبوة والرسالة:

ثانياً : إثبات النبوة .

ذهب أهل الكلام إلى تقرير نبوة الأنبياء بالمعجزات وحصر إثبات النبوة بهذا الطريق وعليه أنكروا كرامات الأولياء والسحر ونحو ذلك من خوارق العادات لغير الأنبياء.

وعند أهل السنة يكون إثبات النبوة:

1- بالمعجزات

2- بقرائن الأحوال .

أبحاث في النبوة والرسالة

حيث إن النبوة إنما يدعيها أصدق الصادقين أو أكذب الكاذبين، ونحن نعلم بالتواتر من أحوال الأنبياء أنهم كانوا صادقين وذلك من وجوه:

-أنهم أخبروا الأمم بما سيكون من انتصارهم وخذلان أعدائهم وتحقق هذا كغرق فرعون وغرق قوم نوح وغيرها .

- ما جاء به الرسل من الشرائع تبين أنهم أعلم الخلق وأنه لا يحصل مثل ذلك من كذاب جاهل.

أبحاث في النبوة والرسالة:

ثالثاً/ بين النبوة والولاية:

قال الطحاوي رحمه الله : (ولا نفضل احداً من الأولياء على أحد من الأنبياء عليهم السلام، ونقول: نبي واحد أفضل من جميع الأولياء)

يشير الطحاوي رحمه الله إلى الرد على الاتحادية وجهلة المتصوفة الذين ادعوا أن الولاية أعظم من النبوة.

والصواب أن النبوة أخص من الولاية الثابتة للمؤمنين المتقين كما قال تعالى : { ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون}.

تتمة الإيمان بالرسول

• الإيمان بنبيينا صلى الله عليه وسلم، وفيه:

1- اصطفاء الله لنبيه صلى الله عليه وسلم.

2- أدلة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

3- بعض خصائصه وفضائله صلى الله عليه وسلم.

اصطفاء الله لنبيه ﷺ:

قال الطحاوي رحمه الله : (وإن محمداً عبده المصطفى..)

الاصطفاء بمعنى الاجتباء والارتضاء.

وكمال المخلوق يكون بتحقيقه العبودية لله تعالى، لذا ذكر الله نبيه صلى الله عليه وسلم باسم العبد في أشرف المقامات، فقال في ذكر الإسراء: {سبحان الذي أسرى بعبده}، وقال: { فأوحى إلى عبده ما أوحى}.

ويقول المسيح عليه السلام يوم القيامة إذا طلبوا منه الشفاعة : ” اذهبوا إلى محمد، عبد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر “
رواه البخاري ومسلم.

أدلة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم:

الدليل الأول: قرائن الحال تدل على صدقه صلى الله عليه وسلم.

الدليل الثاني: إنكار رسالته طعن في الله تعالى.

بيان الدليل الأول: يشهد له الأقوال التالية:

1- خديجة رضي الله عنها وصفت النبي عليه الصلاة والسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم عندما جاءه الوحي وقال: ”إني قد خشيت على نفسي“، فقالت: كلا ، والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف..“أخرجه البخاري ومسلم وأحمد.

أدلة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم:

2- قال النجاشي للصحابة رضي الله عنهم لما استقرأهم القرآن فقرأوا عليه : ”إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة“.أخرجه أحمد.

3- قال ورقة بن نوفل لما أخبره النبي صلى الله عليه وسلم بما رآه من أمر الوحي : ”هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى“ أخرجه البخاري.

4- هرقل ملك الروم لما سأل أبا سفيان عن أحوال النبي ﷺ فأجابه. فقال هرقل: هذه صفة نبي“.أخرجه البخاري.

أدلة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم:

بيان الدليل الثاني:

لأن الله تعالى طيلة ثلاث وعشرين سنة يؤيد نبيه _صلى الله عليه وسلم_ وينصره , ويعلي أمره , ويمكن له من أسباب النصر الخارجة عن عادة البشر, ويجيب أيضاً دعواته , ويهلك أعداءه , ويرفع له ذكره.

أدلة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم:

ولا ننكر أن بعض الكذابين قام في الوجود , وظهرت له

شوكة ولكن لم يتم أمره , ولم تطل مدته.

والكفار يعلمون ذلك. قال تعالى: {أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون , قل تربصوا فإني معكم من المتربصين}.

بعض خصائص وفضائل النبي ﷺ

1- خاتم النبيين:

قال الطحاوي رحمه الله : (وإنه خاتم الأنبياء، وكل دعوى النبوة بعده فغي وهوى)

قال تعالى : ”ولكن رسول الله وخاتم النبيين“

وقال _صلى الله عليه وسلم_: ”إن لي أسماء : أنا محمد , وأنا أحمد, وأنا الماحي , يمحو الله بي الكفر, وأنا الحاشر, الذي يحشر الناس على قدمي, وأنا العاقب, والعاقب الذي ليس بعده نبي “ (أخرجه البخاري ومسلم).

بعض خصائص وفضائل النبي ﷺ

2- إمام الأتقياء. قال الطحاوي رحمه الله : (وإمام الأتقياء)

الإمام: الذي يؤتم به, أي يقتدون به. قال تعالى: {قل إن كنتم تحبون الله, فاتبعوني يحببكم الله}, وكل من اتبعه واقتدى به فهو

من الأتقياء.

3- سيد المرسلين. قال الطحاوي رحمه الله: (وسيد المرسلين) قال ﷺ "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة" (أخرجه مسلم).

بعض خصائص وفضائل النبي ﷺ

وما ورد من النهي عن تفضيل النبي ﷺ على الأنبياء كما ثبت من حديث: "لا تفضلوني على موسى", وقوله: "لا تفضلوا بين الأنبياء" فيجانب عنه بجوابين:

أ. أن المذموم من التفضيل ما كان على وجه الفخر, أو على وجه الانتقاص بالمفضل.

ب. النهي عن التفضيل الخاص, أي لا يفضل بعض الرسل على بعض بعينه.

بعض خصائص وفضائل النبي ﷺ

4. الخلّة والمحبة. قال الطحاوي رحمه الله: "وحبيب رب العالمين"

صح عنه ﷺ انه قال: "إن الله اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا" وقال في حديث آخر: "ولكن صاحبكم خليل الرحمن"

5- عموم بعثته ﷺ

. قال الطحاوي رحمه الله: (وهو المبعوث إلى عامة الجن, وكافة الورى, بالحق والهدى

وبالنور والضياء)

قال تعالى حكاية عن قول الجن: {يا قومنا أجيئوا داعي الله}.

بعض خصائص وفضائل النبي ﷺ

وأما كونه مبعوثًا إلى كافة الورى فقد قال تعالى: {قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعًا}.

وقال صلى الله عليه وسلم: "أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي _ وذكر منها _ وبعثت إلى الناس عامة" (أخرجه

في الصحيحين).

وقد كذب النصراني في ادعائهم أنه رسول للعرب خاصة حيث إنه صلى الله عليه وسلم أرسل رسله وبعث كتبه في أقطار الأرض وخاطب ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام.

بعض خصائص وفضائل النبي ﷺ

6- الإسراء والمعراج. قال الطحاوي رحمه الله: (والمعراج حق, وقد أسري بالنبي ﷺ, وعرج بشخصه في اليقظة إلى السماء, ثم إلى حيث شاء الله من العلا, وأكرمه الله بما شاء, وأوحى إليه ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى, فصلّى الله

عليه وسلم في الآخرة والأولى)

المعراج من العروج , أي الآلة التي يعرج بها , وهو من المغيبات

التي نؤمن بها ولا نشغل بكيفيتها.

بعض خصائص وفضائل النبي ﷺ

والإسراء بالنبي صلى الله عليه وسلم كان بجسده في الليقة. قال تعالى: {سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى}. والعبد عبارة عن مجموع الجسد والروح.

ثم لو كان الإسراء به مناماً لما كان هناك داعٍ لأن يكذبه مشركو قريش.

المحاضرة الثانية عشر

الْجَنَّةُ وَالنَّارُ مَخْلُوقَتَانِ وَهُمَا مَوْجُودَتَانِ الْآنَ

الْجَنَّةُ وَالنَّارُ مَخْلُوقَتَانِ وَهُمَا مَوْجُودَتَانِ الْآنَ

الْجَنَّةُ وَالنَّارُ مَخْلُوقَتَانِ وَهُمَا مَوْجُودَتَانِ الْآنَ وَلَا تَفْنِيَانِ أَبَدًا

قوله: (والجنة والنار مخلوقتان، لا تفنيان أبدا ولا تبديدان، فإن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق، وخلق لهما أهلا، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلا منه، ومن شاء منهم إلى النار عدلا منه، وكل يعمل لما قد فرغ له، وصائر إلى ما خلق له، والخير والشر مقدران على العباد).

ش: أما قوله: " إن الجنة والنار مخلوقتان " - فاتفق أهل السنة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، ولم يزل على ذلك أهل السنة، حتى نبغت نابغة من المعتزلة والقدرية، فأنكرت ذلك، وقالت: بل [ينشئهما] الله يوم القيامة!! وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة لما يفعله الله، وأنه ينبغي أن يفعل كذا، ولا ينبغي له أن يفعل كذا!! وقاسوه على خلقه في أفعالهم، فهم مشبهة في الأفعال، ودخل التجهم فيهم، فصاروا مع ذلك معطلة !

وقالوا: خلق الجنة قبل الجزاء عبث ! لأنها تصير معطلة مددا متطاولة !! فردوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوها للرب تعالى، وحرفوا النصوص عن مواضعها، وضللوا وبدعوا من خالف شريعتهم. فمن نصوص الكتاب: قوله تعالى عن الجنة: (أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ). (أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ). وعن النار: (أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ). (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا لِلطَّاغِينَ مَابًا). وقال تعالى: (وَلَقَدْ رَأَوْا نَزْلَةَ أُخْرَىٰ (13) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ (14) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ). وقد رأى النبي ﷺ سدرة المنتهى، ورأى عندها جنة المأوى. كما في الصحيحين، من حديث أنس ر في قصة الإسراء، وفي آخره: {ثم انطلق بي جبرائيل، حتى أتى سدرة المنتهى، فغشيها ألوان لا أدري ما هي " قال: " ثم دخلت الجنة، فإذا هي جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك } .

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: {إن أحكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة}. وتقدم حديث البراء بن عازب، وفيه: {ينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي، فافرشوه من الجنة، وافتحوا له بابا إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها} .

وتقدم حديث أنس بمعنى حديث البراء. وفي صحيح مسلم، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: {خسفت الشمس في حياة رسول الله ﷺ}. فذكرت الحديث، وفيه: وقال رسول الله ﷺ {رأيت في مقامي هذا كل شيء وعدتم به، حتى لقد رأيتني أخذ قطفا من الجنة حين رأيت جنة جحيم يحطم بعضها بعضا حين رأيت جنة تأخرت} .

وفي الصحيحين، واللفظ للبخاري، عن عبد الله ابن عباس، قال: {انخسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ} (١). فذكر الحديث، وفيه: {فقالوا: يا رسول الله رأيناك تتناولت شيئا في مقامك، ثم رأيناك تكعكت ؟ فقال: " إني رأيت الجنة، وتناولت عنقودا، ولو أصبته لأكلت منه ما بقيت الدنيا، ورأيت النار، فلم أر منظرا كالיום قط أفزع، ورأيت أكثر أهلها النساء "، قالوا: بم، يا رسول الله ؟ قال: " بكفرنهن "، قيل: أيكفرن بالله ؟ قال: " يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله، ثم رأيت منك شيئا، قالت: ما رأيت خيرا قط !! } .

وفي صحيح مسلم من حديث أنس: {وايم الذي نفسي بيده، لو رأيتم ما رأيتم، لضحكتم قليلا [ولبكيتم] . كثيرا " قالوا: وما رأيتم يا رسول الله ؟ قال: " رأيت الجنة والنار } .

وفي الموطأ والسنن، من حديث كعب بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ {إنما نسمة المؤمن طير تعلق في شجر الجنة، حتى يرجعها الله إلى جسده يوم القيامة} .

وهذا صريح في دخول الروح الجنة قبل يوم القيامة.

وفي صحيح مسلم والسنن والمسنند. من حديث أبي هريرة رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: {لما خلق الله الجنة والنار، أرسل جبرائيل إلى الجنة، فقال: اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها. فذهب فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها، فرجع فقال: وعزتك، لا يسمع بها أحد إلا دخلها. فأمر بالجنة، فحفت بالكمارة، فقال: ارجع فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها. قال: فنظر إليها، ثم رجع فقال: وعزتك، لقد خشيت أن لا يدخلها أحد. قال: ثم أرسله إلى النار، قال: اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها. قال: فنظر إليها، فإذا هي يركب بعضها بعضا، ثم رجع فقال: وعزتك، لا يدخلها أحد سمع بها. فأمر بها فحفت بالشهوات، ثم قال: اذهب فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها. فذهب فنظر إليها، فرجع فقال: وعزتك، لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها} . ونظائر ذلك في السنة كثيرة.

وأما على قول من قال: إن الجنة الموعود بها هي الجنة التي كان فيها آدم ثم أخرج منها - فالقول بوجودها الآن ظاهر، والخلاف في ذلك معروف.

وأما شبهة من قال: إنها لم تخلق بعد، وهي: أنها لو كانت مخلوقة الآن لوجب اضطرارا أن تقنى يوم القيامة وأن يهلك كل من فيها ويموت، لقوله تعالى: (شَيْءٌ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) و (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) .

وقد روى الترمذي في جامعه، من حديث ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ {لقيت إبراهيم ليلة أسري بي، فقال: يا محمد، أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر} ، قال: هذا حديث حسن غريب.

وفيه أيضا من حديث أبي الزبير، عن جابر، عن النبي ﷺ أنه قال: {من قال سبحان الله وبحمده، غرست له نخلة في الجنة} ، قال: هذا حديث حسن صحيح، قالوا: فلو كانت مخلوقة مفروغا منها لم تكن قيعانا، ولم يكن لهذا الغراس معنى. قالوا: وكذا قوله تعالى عن امرأة فرعون أنها قالت: (رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ) . - فالجواب: إنكم إن أردتم بقولكم إنها الآن معدومة بمنزلة النفخ في الصور وقيام الناس من القبور، فهذا باطل، يرد ما تقدم من الأدلة وأمثالها مما لم يذكر، وإن أردتم أنها لم يكمل خلق جميع ما أعد الله فيها لأهلها، وأنها لا يزال الله يحدث فيها شيئا بعد شيء، وإذا دخلها المؤمنون أحدث الله فيها عند دخولهم أمورا آخر - فهذا حق لا يمكن رده، وأدلتكم هذه إنما تدل على هذا القدر.

وأما احتجاجكم بقوله تعالى: (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) فأنبتم سوء فهمكم معنى الآية، واحتجاجكم بها على عدم وجود الجنة والنار الآن - نظير احتجاج إخوانكم بها على فنائهما وخرابهما وموت أهلها !! فلم توفقوا أنتم ولا إخوانكم لفهم معنى الآية، وإنما وفق لذلك أئمة الإسلام.

فمن كلامهم: أن المراد "كل شيء" مما كتب الله عليه الفناء والهلاك "هالك"، والجنة والنار خلقا للبقاء لا للفناء، وكذلك العرش، فإنه سقف الجنة. وقيل: المراد إلا ملكه. وقيل: إلا ما أريد به وجهه. وقيل: إن الله تعالى أنزل: (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا

فَإِنْ (فَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: هَلَكَ أَهْلُ الْأَرْضِ، وَطَمَعُوا فِي الْبَقَاءِ، فَأَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ أَهْلِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَنَّهُمْ يَمُوتُونَ، فَقَالَ: (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) لِأَنَّهُ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، فَأَيَقُنْتَ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ ذَلِكَ بِالْمَوْتِ. وَإِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ تَوْفِيقًا بَيْنَهَا وَبَيْنَ النُّصُوصِ الْمَحْكَمَةِ، الدَّالَّةِ عَلَى بَقَاءِ الْجَنَّةِ،

وقوله: " لا تَفْنِيَانِ أَبَدًا وَلَا تَبِيدَانِ " - هذا قول جمهور الأئمة من السلف والخلف.

وقال ببقاء الجنة وقال بفناء النار جماعة من السلف والخلف، والقولان مذكوران في كثير من كتب التفسير وغيرها. وقال بفناء الجنة والنار الجهم بن صفوان إمام المعطلة، وليس له سلف قط، لا من الصحابة ولا من التابعين لهم بإحسان، ولا من أئمة المسلمين، ولا من أهل السنة. وأنكره عليه عامة أهل السنة، وكفروه به، وصاحوا به وبأتباعه من أقطار الأرض. وهذا قاله لأصله الفاسد الذي اعتقده، وهو امتناع وجود ما لا يتناهى من الحوادث! وهو عمدة أهل الكلام المذموم، التي استدلو بها على حدوث الأجسام، وحدث ما لم يخل من الحوادث، وجعلوا ذلك عمدتهم في حدوث العالم. فرأى الجهم أن ما يمنع من حوادث لا أول لها في الماضي، يمنعه في المستقبل!! فدوام الفعل عنده على الرب في المستقبل ممتنع، كما هو ممتنع عنده عليه في الماضي!! وأبو الهذيل العلاف شيخ المعتزلة، وافقه على هذا الأصل، لكن قال: إن هذا يقتضي فناء الحركات، فقال بفناء حركات أهل الجنة والنار، حتى يصيروا في سكون دائم، لا يقدر أحد منهم على حركة!!

وقد تقدم الإشارة إلى اختلاف الناس في تسلسل الحوادث في الماضي والمستقبل، وهي مسألة دوام فاعلية الرب تعالى، وهو لم يزل ربا قادرا فعلا لما يريد، فإنه لم يزل حيا عليما قديرا. ومن المحال أن يكون الفعل ممتنعا عليه لذاته، ثم ينقلب فيصير ممكنا لذاته، من غير تجدد شيء، وليس للأول حد محدود حتى يصير الفعل ممكنا له عند ذلك الحد، ويكون قبله ممتنعا عليه. فهذا القول تصوره كاف في الجزم بفساده.

فأما أبدية الجنة، وأنها لا تَفْنَى ولا تَبِيدُ، فهذا مما يعلم بالضرورة أن الرسول ﷺ أخبر به، قال تعالى: (وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُودٍ) أي غير مقطوع، ولا ينافي ذلك قوله: (إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ) .

واختلف السلف في هذا الاستثناء:

ف قيل: معناه إلا مدة مكثهم في النار، وهذا يكون لمن دخل منهم إلى النار ثم أخرج منها، لا لكلهم.

وقيل: إلا مدة مقامهم في الموقف.

وقيل: إلا مدة مقامهم في القبور والموقف.

وقيل: هو استثناء [استثناء] الرب ولا يفعله، كما تقول: والله لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك، وأنت لا تراه، بل تجزم بضربه.

وقيل: " إلا " بمعنى الواو، وهذا على قول بعض النحاة، وهو ضعيف. [ومنهم] من يجعل " إلا " بمعنى " لكن "، فيكون الاستثناء منقطعاً، ورجحه ابن جرير وقال: إن الله تعالى لا خلف لوعده، وقد وصل الاستثناء بقوله: (عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُودٍ). قالوا: ونظيره أن تقول: أسكنتك داري حولا إلا ما شئت. أي سوى ما شئت، [أو لكن] ما شئت من الزيادة عليه.

وقيل: الاستثناء لإعلامهم، بأنهم مع خلودهم في مشيئة الله، لأنهم لا يخرجون عن مشيئته، ولا ينافي ذلك عزمته وجزمه لهم بالخلود، كما في قوله تعالى: (وَلَكِنَّ شَيْئًا لَّنْذَهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا) وقوله تعالى: (فَإِنْ يَشَاءِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ) وقوله: (قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ). ونظائره كثيرة، يخبر عباده سبحانه أن الأمور كلها بمشيئته، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

وقيل: إن " ما " بمعنى " من " أي: إلا من شاء الله دخوله النار بذنوبه من السعداء. وقيل غير ذلك.

وعلى كل تقدير، فهذا الاستثناء من المنتسابه، وقوله: (عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ) محكم. وكذلك قوله تعالى: (إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ). وقوله: (أَكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا) وقوله: (وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ).

وقد أكد الله خلود أهل الجنة بالتأبيد في عدة مواضع من القرآن، وأخبر أنهم: (لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى) وهذا الاستثناء منقطع، وإذا ضممته إلى الاستثناء في قوله تعالى: (إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ) - تبين أن المراد من الآيتين استثناء الوقت الذي لم يكونوا فيه في الجنة من مدة الخلود، كاستثناء الموتة الأولى من جملة الموت، فهذه موتة تقدمت على حياتهم الأبدية، [وذاك] . مفارقة للجنة تقدمت على خلودهم فيها.

والأدلة من السنة على أبدية الجنة ودوامها كثيرة: كقوله p{من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس، ويخلد ولا يموت} . وقوله: {ينادي مناد: يا أهل الجنة، إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا [أبدا] وأن تشبوا فلا تهرموا أبدا، وأن تحيوا فلا تموتوا أبدا} . وتقدم ذكر ذبح الموت بين الجنة والنار، ويقال: {يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت} .

الأقوال في أبدية النار

وأما أبدية النار ودوامها، فللناس في ذلك ثمانية أقوال:

أحدها: أن من دخلها لا يخرج منها أبد الأبد، وهذا قول الخوارج والمعتزلة.

والثاني: أن أهلها يعذبون فيها، ثم تتقلب طبيعتهم وتبقى طبيعة [نارية] يتلذذون بها لموافقتها لطبعهم ! وهذا قول إمام الاتحادية ابن عربي الطائي !! الثالث: أن أهلها يعذبون فيها إلى وقت محدود، ثم يخرجون منها، ويخلفهم فيها قوم آخرون، وهذا القول حكاه اليهود للنبي p وأكذبهم فيه، وقد أكذبهم الله تعالى، فقال عز من قائل: (وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَنْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُمْ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ).

الرابع: يخرجون منها، وتبقى على حالها ليس فيها أحد.

الخامس: أنها تقنى بنفسها، لأنها حادثة وما ثبت حدوثه استحالة بقاؤه !! وهذا قول الجهم وشيعته، ولا فرق عنده في ذلك بين الجنة والنار، كما تقدم.

السادس: تقنى حركات أهلها ويصيرون جمادا، لا يحسون بالألم، وهذا قول أبي الهذيل كما تقدم.

السابع: أن الله يخرج منها من يشاء، كما ورد في الحديث، ثم يبقيها شيئا، ثم يفنيها، فإنه جعل لها أمدا تنتهي إليه.

الثامن: أن الله تعالى يخرج منها من شاء، كما ورد في السنة، ويبقى فيها الكفار، بقاء لا انقضاء له، كما قال الشيخ رحمه الله.

وما عدا هذين القولين الأخيرين ظاهر البطلان. وهذان القولان لأهل السنة ينظر في أدلتها .

فمن أدلة القول الأول منهما: قوله تعالى: (قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ). وقوله تعالى: (فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (106) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) ولم يأت بعد هذين الاستثناءين ما أتى بعد الاستثناء المذكور لأهل الجنة، وهو قوله: (عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ). وقوله تعالى: (لَا يَبِثْنِ فِيهَا أَحْقَابًا).

وهذا القول - أعني القول بفناء النار دون الجنة - منقول عن عمر، وابن مسعود، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وغيرهم.

وقد روى عبد بن حميد في تفسيره المشهور، بسنده إلى عمر ٢ أنه قال: {لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج، لكان لهم على ذلك وقت يخرجون فيه} ، ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى: (لَا يَبْثِنُ فِيهَا أَحْقَابًا). قالوا: والنار موجب غضبه، والجنة موجب رحمته.

وقد قال p{لما قضى الله الخلق، كتب كتابا، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي}. وفي رواية: {تغلب غضبي} رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قالوا: والله سبحانه يخبر عن العذاب أنه: (عَذَابٌ يَوْمٌ عَظِيمٌ). و {5OŠ Ī9r&} (.) و {AOŠ É) tã} (.) . ولم يخبر ولا في موضع واحد عن النعيم أنه نعيم يوم. وقد قال تعالى: (عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ^ط وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) وقال تعالى حكاية عن الملائكة: (رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا). فلا بد أن تسع رحمته هؤلاء المعذبين، فلو بقوا في العذاب لا إلى غاية لم تسعهم رحمته. وقد ثبت في الصحيح تقدير يوم القيامة بخمسين ألف سنة، والمعذبون فيها متفاوتون في مدة لبثهم في العذاب بحسب جرائمهم، وليس في حكمة أحكم الحاكمين ورحمة أرحم الراحمين أن يخلق خلقا يعذبهم أبد الأبد عذابا سرمدًا لا نهاية له. وأما أنه يخلق خلقا ينعم [عليهم] () ويحسن إليهم نعيما سرمدًا - فمن مقتضى الحكمة. والإحسان مراد لذاته، والانتقام مراد بالعرض.

قالوا: وما ورد من الخلود فيها، والتأبيد، وعدم الخروج، وأن عذابها مقيم، وأنه غرام - كله حق مسلم، لا نزاع فيه، وذلك يقتضي الخلود في دار العذاب ما دامت باقية، وإنما يخرج منها في حال بقائها أهل التوحيد. ففرق بين من يخرج من الحبس وهو حبس على حاله، وبين من يبطل حبسه بخراب الحبس وانتقاضه.

ومن أدلة القائلين ببقائها وعدم فنائها: قوله: (وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ). (لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ). (فَلَنْ نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا). (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا). (وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ). (وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ). (وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ). (لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا). (إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا) أي مقيما لازما.

وقد دلت السنة المستفيضة أنه يخرج من النار من قال: " لا إله إلا الله "، وأحاديث الشفاعة صريحة في خروج عصاة الموحدين من النار، وأن هذا حكم مختص بهم، فلو خرج الكفار منها لكانوا بمنزلتهم، ولم يختص الخروج بأهل الإيمان. وبقاء الجنة والنار ليس لذاتهما، بل بإبقاء الله لهما.

وقوله: " وخلق لهما أهلا " - قال تعالى: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ^ط) الآية. وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: {دعي رسول الله p إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله، طوبى لهذا، عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل سوءا ولم يدركه. فقال: " أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق للجنة أهلا، خلقهم لها وهم في أصلاص آبائهم، وخلق للنار أهلا، خلقهم لها وهم في أصلاص آبائهم}. رواه مسلم وأبو داود والنسائي.

وقال تعالى: (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (2) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا). والمراد الهداية العامة، وأعم منها الهداية المذكورة في قوله تعالى: (الَّذِي أُعْطِيَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى).

فالموجودات نوعان: أحدهما مسخر بطبعه، والثاني متحرك بإرادته، فهدي الأول لما سخره له طبيعة، وهدي الثاني هداية إرادية تابعة لشعوره وعلمه بما ينفعه ويضره.

ثم قسم [هذا النوع] . إلى ثلاثة أنواع: نوع لا يريد إلا الخير ولا يتأتى منه إرادة سواه، كالملائكة.

ونوع لا يريد إلا الشر ولا يتأتى منه إرادة سواه، كالشيطان.

ونوع يتأتى منه إرادة القسمين، كالإنسان. ثم جعله ثلاثة أصناف:

صنف يغلب إيمانه ومعرفته وعقله هواه وشهوته، فيلتحق بالملائكة.

وصنف عكسه، فيلتحق بالشياطين.

وصنف تغلب شهوته البهيمية عقله، فيلتحق بالبهائم.

المحاضرة الثالثة عشر

لَا مَوْجُودَ إِلَّا بِإِيجَادِ اللَّهِ

لَا مَوْجُودَ إِلَّا بِإِيجَادِ اللَّهِ

والمقصود: أنه سبحانه أعطى الوجودين: العيني والعلمي، فكما أنه لا موجود إلا بإيجاده، فلا هداية إلا بتعليمه، وذلك كله من الأدلة على كمال قدرته، وثبوت وحدانيته، وتحقيق ربوبيته، سبحانه وتعالى.

وقوله: " فمن شاء منهم إلى الجنة فضلا منه، ومن شاء منهم إلى النار عدلا منه " إلخ - مما يجب أن يعلم: أن الله تعالى لا يمنع الثواب إلا إذا منع سببه، وهو العمل الصالح، فإنه: (من يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما). وكذلك لا يعاقب أحدا إلا بعد حصول سبب العقاب، فإن الله تعالى يقول: (وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ).

وهو سبحانه المعطي المانع، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع. لكن إذا من على الإنسان بالإيمان [والعمل] الصالح، فلا يمنعه موجب ذلك أصلا، بل يعطيه من الثواب والقرب ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وحيث منعه ذلك فلانتفاء سببه (وهو العمل الصالح).

ولا ريب أنه يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، لكن ذلك كله حكمة منه وعدل، فمنعه للأسباب التي هي الأعمال الصالحة من حكمته وعدله. وأما المسببات بعد وجود أسبابها، فلا يمنعها بحال، إذا لم تكن أسبابا غير صالحة، إما لفساد في العمل، وإما لسبب يعارض موجهه ومقتضاه، فيكون ذلك لعدم المقتضي، أو لوجود المانع. وإذا كان منعه وعقوبته من عدم الإيمان والعمل الصالح، وهو لم يعط ذلك ابتلاء وابتداء إلا حكمة منه وعدلا.

فله الحمد في الحالين، وهو المحمود على كل حال، كل عطاء منه فضل، وكل عقوبة منه عدل، فإن الله تعالى حكيم يضع الأشياء في مواضعها التي تصلح لها، كما قال تعالى: (وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۗ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ). وكما قال تعالى: (وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ).

الِاسْتِطَاعَةُ تَكُونُ مَعَ الْفِعْلِ وَقَبْلَهُ

قوله: (والاستطاعة التي يجب بها الفعل، من نحو التوفيق الذي لا يجوز أن يوصف المخلوق به - تكون مع الفعل. وأما الاستطاعة من جهة الصحة والوسع، والتمكين وسلامة الآلات - فهي قبل الفعل، وبها يتعلق الخطاب، وهو كما قال تعالى: (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا).

ش: الاستطاعة والطاقة والقدرة والوسع، ألفاظ متقاربة، وتنقسم الاستطاعة إلى قسمين، كما ذكره الشيخ رحمه الله، وهو قول عامة أهل السنة، وهو الوسط. وقالت القدرية والمعتزلة: لا تكون القدرة إلا قبل الفعل. وقابلهم طائفة من أهل السنة فقالوا: لا تكون إلا مع الفعل.

والذي قاله عامة أهل السنة: أن للبعد قدرة هي مناط الأمر والنهي، وهذه قد تكون قبله، لا يجب أن تكون معه، والقدرة التي بها الفعل لا بد أن تكون مع الفعل، لا يجوز أن يوجد الفعل بقدرة معدومة.

وأما القدرة التي من جهة الصحة والوسع، والتمكين وسلامة الآلات - فقد تتقدم الأفعال. وهذه القدرة المذكورة في قوله تعالى: (وَاللَّهُ عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا^٤). فأوجب الحج على المستطيع، فلو لم يستطع إلا من حج لم يكن الحج قد وجب إلا على من حج، ولم يعاقب أحدا على ترك الحج ! وهذا خلاف المعلوم بالضرورة من دين الإسلام.

وكذلك قوله تعالى: (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ). فأوجب التقوى بحسب الاستطاعة، فلو كان من لم يتق الله لم يستطع التقوى، لم يكن قد أوجب التقوى إلا على من اتقى، ولم يعاقب من لم يتق ! وهذا معلوم الفساد.

وكذلك قوله تعالى: (فَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ فِطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِينًا^٥) والمراد منه استطاعة الأسباب والآلات.

وكذا ما حكاه سبحانه من قول المنافقين: (أَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ). وكذبهم في ذلك القول، ولو كانوا أرادوا الاستطاعة التي هي حقيقة قدرة الفعل - ما كانوا بنفيهم عن أنفسهم كاذبين، وحيث كذبهم دل أنهم أرادوا بذلك المرض أو فقد المال، على ما بين تعالى بقوله: (لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى^٦) إلى أن قال: (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنَاءُ^٧). وكذلك قوله تعالى: (وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ). والمراد: استطاعة الآلات والأسباب. ومن ذلك قوله p لعمران بن حصين: {صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا، فإن لم تستطع فعلى جنب} (). وإنما نفى استطاعة الفعل معها.

وأما دليل ثبوت الاستطاعة التي هي حقيقة القدرة، فقد ذكروا فيها قوله تعالى: (مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ). والمراد نفى حقيقة القدرة، لا نفى الأسباب والآلات، لأنها كانت ثابتة. وسيأتي لذلك زيادة بيان عند قوله: " ولا يطيقون إلا ما كلفهم "، إن شاء الله تعالى. وكذا قول صاحب موسى: (إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ). وقوله: (أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا^٨). والمراد منه حقيقة قدرة الصبر، لا أسباب الصبر والآلة، فإن تلك كانت ثابتة له، ألا ترى أنه عاتبه على ذلك؟ ولا يلام من عدم آلات الفعل وأسبابه على عدم الفعل، وإنما يلام من امتنع من الفعل لتضييع قدرة الفعل، لاشتغاله بغير ما أمر به، أو [لعدم] شغله إياها بفعل ما أمر به (). ومن قال: إن القدرة لا تكون إلا حين الفعل - يقولون: إن القدرة لا تصلح للضدين، فإن القدرة المقارنة للفعل لا تصلح إلا لذلك الفعل، وهي مستلزمة له، لا توجد بدونه.

وما قالته القدرية - بناء على أصلهم الفاسد، وهو إقدار الله للمؤمن والكافر والبر والفاجر سواء، فلا يقولون إن الله خص المؤمن المطيع بإعانة حصل بها الإيمان، بل هذا بنفسه رجع الطاعة، وهذا بنفسه رجع المعصية ! كالوالد الذي أعطى كل واحد من بنيهِ سيفاً، فهذا جاهد به في سبيل الله، وهذا قطع به الطريق.

وهذا القول فاسد باتفاق أهل السنة والجماعة المثبتين للقدر، فإنهم متفقون على أن الله على عبده المطيع نعمة دينية، خصه بها دون الكافر، وأنه أعانه على الطاعة إعانة لم يعن بها الكافر. كما قال تعالى: (وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ^٩ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ).

فالقدرية يقولون: إن هذا التحبيب والتزيين عام في كل الخلق، وهو بمعنى البيان وإظهار دلائل الحق. والآية تقتضي أن هذا خاص بالمؤمن، ولهذا قال: (أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ)

(.) والكفار ليسوا راشدين. وقال تعالى: (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ). وأمثال هذه الآية في القرآن كثير، يبين أنه سبحانه هدى هذا وأضل هذا. قال تعالى: (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا). وسيأتي لهذه المسألة زيادة بيان، إن شاء الله تعالى.

وأيضاً فقول القائل: يرجح بلا مرجح - إن كان لقوله: " يرجح " معنى زائد على الفعل، فذاك هو السبب المرجح، وإن لم يكن له معنى زائد كان حال الفاعل قبل وجود الفعل كحاله عند الفعل، ثم الفعل حصل في إحدى الحالتين دون الأخرى بلا مرجح ! وهذا مكابرة للعقل !! فلما كان أصل قول القدرية أن فاعل الطاعات وتاركها كلاهما في الإعانة والإقدار سواء - امتنع على أصلهم أن يكون مع الفعل قدرة تخصه، لأن القدرة التي تخص الفعل لا تكون للتارك، وإنما تكون للفاعل، ولا تكون القدرة إلا من الله تعالى.

وهم لما رأوا أن القدرة لا بد أن تكون قبل الفعل، قالوا: لا تكون مع الفعل، لأن القدرة هي التي يكون بها الفعل والترك، وحال وجود الفعل يمتنع الترك، فلماذا قالوا: القدرة لا تكون إلا قبل الفعل ! وهذا باطل قطعاً، فإن وجود الأمر مع عدم بعض شروطه الوجودية ممتنع، بل لا بد أن يكون جميع ما يتوقف عليه الفعل من الأمور الوجودية موجوداً عند الفعل. فنقيض قولهم حق، وهو: أن الفعل لا بد أن يكون معه قدرة.

لكن صار أهل الإثبات هنا حزبين: حزب قالوا: لا تكون القدرة إلا معه، ظناً منهم أن القدرة نوع واحد لا يصلح للضدين، وظناً من بعضهم أن القدرة عرض، فلا تبقى زمانين، فيمتنع وجودها قبل الفعل.

والصواب: أن القدرة نوعان كما تقدم: نوع مصحح للفعل، يمكن معه الفعل والترك، وهذه هي التي يتعلق بها الأمر والنهي، وهذه تحصل للمطيع والعاصي، وتكون قبل الفعل، وهذه تبقى إلى حين الفعل، إما بنفسها عند من يقول ببقاء الأعراض، وإما بتجدد أمثالها عند من يقول إن الأعراض لا تبقى زمانين، وهذه قد تصلح للضدين، وأمر الله مشروط بهذه الطاقة، فلا يكلف الله من ليس معه هذه الطاقة، وضد هذه العجز، كما تقدم.

وأيضاً: فالاستطاعة المشروطة في الشرع أخص من الاستطاعة التي يمتنع الفعل مع عدمها، فإن الاستطاعة الشرعية قد تكون ما يتصور الفعل مع عدمها وإن لم يعجز عنه. فالشارع يبسر على عباده، ويريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر، وما جعل عليكم في الدين من حرج، والمريض قد يستطيع القيام مع زيادة المرض وتأخر برئه، فهذا في الشرع غير مستطيع، لأجل حصول الضرر عليه، وإن كان قد يسمى مستطيعاً. فالشارع لا ينظر في الاستطاعة الشرعية إلى مجرد إمكان الفعل، بل ينظر إلى لوازم ذلك، فإن كان الفعل ممكناً مع المفسدة الراجعة لم تكن هذه استطاعة شرعية، كالذي يقدر على الحج مع ضرر يلحقه في بدنه أو ماله، أو يصلي قائماً مع زيادة مرضه، أو يصوم الشهرين مع انقطاعه عن معيشتة، ونحو ذلك. فإن كان الشارع قد اعتبر في المكنة عدم المفسدة الراجعة، فكيف يكلف مع العجز ؟!

ولكن هذه الاستطاعة - مع بقائها إلى حين الفعل - لا تكفي في وجود الفعل، ولو كانت كافية لكان التارك كالفاعل، بل لا بد من إحداث إعانة أخرى تقارن، مثل جعل الفاعل مريداً، فإن الفعل لا يتم إلا بقدرة وإرادة، والاستطاعة المقارنة تدخل فيها الإرادة الجازمة، بخلاف المشروطة في التكليف، فإنه لا يشترط فيها الإرادة. فالله تعالى يأمر بالفعل من لا يريده، لكن لا يأمر به من لو أراده لعجز عنه. وهكذا أمر الناس بعضهم لبعض، فالإنسان يأمر عبده بما لا يريده العبد، لكن لا يأمره بما يعجز عنه العبد، وإذا اجتمعت الإرادة الجازمة والقوة التامة، لزم وجود الفعل. وعلى هذا ينبنى تكليف ما لا يطاق، فإن من قال: القدرة لا تكون إلا مع الفعل - يقول: كل كافر وفاسق قد كلف ما لا يطيق. وما لا يطاق يفسر بشيئين: بما لا يطاق للعجز عنه، فهذا لم يكلفه الله أحداً، ويفسر بما لا يطاق للاشتغال بضده، فهذا هو الذي وقع فيه التكليف، كما في أمر العباد بعضهم بعضاً، فإنهم يفرقون بين هذا وهذا، فلا يأمر السيد عبده الأعمى بنقط المصاحف ! ويأمره إذا كان قاعداً أن يقوم، ويعلم الفرق بين الأمرين بالضرورة.

أَفْعَالُ الْعِبَادِ خَلَقَ اللَّهُ وَهُمْ فَاعِلُونَ لَهَا حَقِيقَةً

قوله: (وأفعال العباد خلق الله وكسب من العباد).

ش: اختلف الناس في أفعال العباد الاختيارية، فزعمت الجبرية ورئيسهم الجهم بن صفوان السمرقندي () أن التدبير في أفعال الخلق كلها لله تعالى، وهي كلها اضطرارية، كحركات المرتعش، والعروق النابضة، وحركات الأشجار، وإضافتها إلى الخلق مجاز ! وهي على حسب ما يضاف الشيء إلى محله دون ما يضاف إلى محصله !

وقابلتهم المعتزلة، فقالوا: إن جميع الأفعال الاختيارية من جميع الحيوانات بخلقها، لا تعلق لها بخلق الله تعالى. واختلفوا فيما بينهم: أن الله تعالى يقدر على أفعال العباد أم لا ؟!

وقال أهل الحق: أفعال العباد بها صاروا مطيعين وعصاة، وهي مخلوقة لله تعالى، والحق سبحانه وتعالى منفرد بخلق المخلوقات، لا خالق لها سواه. فالجبرية غلوا في إثبات القدر، فنفوا صنع العبد أصلاً، كما غلت المشبهة في إثبات الصفات، فشبهاوا. والقدرية نفاة القدر جعلوا العباد خالقين مع الله تعالى. ولهذا كانوا " مجوس هذه الأمة "، بل أردأ من المجوس، من حيث أن المجوس أثبتوا خالقين، وهم أثبتوا خالقين !!

وهدى الله المؤمنين أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. فكل دليل صحيح تقيمه الجبرية، فإنما يدل على أن الله خالق كل شيء، وأنه على كل شيء قدير، وأن أفعال العباد من جملة مخلوقاته، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولا يدل على أن العبد ليس بفاعل في الحقيقة ولا مريد ولا مختار، وأن حركاته الاختيارية بمنزلة حركة المرتعش وهبوب الرياح وحركات الأشجار.

وكل دليل صحيح يقيمه القدرية فإنما يدل على أن العبد فاعل لفعله حقيقة، وأنه مريد له مختار له حقيقة، وأن إضافته ونسبته إليه إضافة حق، ولا يدل على أنه غير مقدور لله تعالى وأنه واقع بغير مشيئته وقدرته.

فإذا ضمنت ما مع كل طائفة منهما من الحق إلى حق الأخرى - فإنما يدل ذلك على ما دل عليه القرآن وسائر كتب الله المنزلة، من عموم قدرة الله ومشيئته لجميع ما في الكون من الأعيان والأفعال، وأن العباد فاعلون لأفعالهم حقيقة، وأنهم يستوجبون عليها المدح والذم.

وهذا هو الواقع في نفس الأمر، فإن أدلة الحق لا تتعارض، والحق يصدق بعضه بعضاً. ويضيق هذا المختصر عن ذكر أدلة الفريقين، ولكنها تتكافأ وتتساقط، ويستفاد من دليل كل فريق بطلان قول الآخرين. ولكن أذكر شيئاً مما استدل به كل من الفريقين، ثم أبين أنه لا يدل على ما استدل عليه من الباطل:

الرَّدُّ عَلَى الْجَبَرِيَّةِ وَالْمُعْتَزَلَةِ فِي مَسْأَلَةِ الْكَلَامِ

فما استدلت به الجبرية، قوله تعالى: (وَمَا رَمَيْتْ إِذْ رَمَيْتْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ) . فنفى الله عن نبيه الرمي، وأثبتته لنفسه سبحانه، فدل على أنه لا صنع للعبد. قالوا: والجزاء غير مرتب على الأعمال، بدليل قوله ﴿لَنْ يَدْخُلَ أَحَدُ الْجَنَّةِ بِعَمَلِهِ﴾. قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ قال: " ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل { () } .

ومما استدلت به القدرية، قوله تعالى: (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) . قالوا: والجزاء مرتب على الأعمال ترتب العوض، كما قال تعالى: (جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) . (وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) . ونحو ذلك.

فأما ما استدلت به الجبرية من قوله تعالى: (وَمَا رَمَيْتْ إِذْ رَمَيْتْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ) - فهو دليل عليهم؛ لأنه تعالى أثبت لرسوله رمياً، بقوله: (إِذْ رَمَيْتْ) .

فعلم أن المثبت غير المنفي، وذلك أن الرمي له ابتداء وانتهاء: فابتدأه الحذف، وانتهأه الإصابة، وكل منهما يسمى رمياً، فالمعنى حينئذ - والله تعالى أعلم: وما أصبت إذ حذفت ولكن الله أصاب. وإلا فطرد قولهم: وما صليت إذ صليت ولكن الله صلى ! وما صمت إذ صمت ! وما زنيت إذ زنيت ! وما سرقت إذ سرقت ! ! وفساد هذا ظاهر.

وأما ترتب الجزاء على الأعمال، فقد ضلت فيه الجبرية والقدرية، وهدى الله أهل السنة، وله الحمد والمنة. فإن الباء التي في النفي غير الباء التي في الإثبات، فالمنفي في قوله ﴿لا يدخل [أحدكم] الجنة بعمله﴾ () () - باء العوض، وهو أن

يكون العمل كالثمن لدخول الرجل إلى الجنة، كما زعمت المعتزلة أن العامل يستحق دخول الجنة على ربه بعمله ! بل ذلك برحمة الله وفضله.

والباء التي في قوله تعالى: (جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) ونحوها، باء السبب، أي بسبب عملكم، والله تعالى هو خالق الأسباب والمسببات، فرجع الكل إلى محض فضل الله ورحمته.

لَا يَدْخُلُ فِي عُموم " كُلِّ " إِلَّا الْمَخْلُوقَاتُ

وأما استدلال المعتزلة بقوله تعالى: (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) - فمعنى الآية: أحسن المصورين المقدرين. و " الخلق " يذكر ويراد به التقدير، وهو المراد هنا، بدليل قوله تعالى: (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) أي الله خالق كل شيء مخلوق، فدخلت أفعال العباد في عموم " كل ". وما أفسد قولهم في إدخال كلام الله تعالى في عموم: " كل "، الذي هو صفة من صفاته، يستحيل عليه أن يكون مخلوقا ! وأخرجوا أفعالهم التي هي مخلوقة من عموم " كل " !! وهل يدخل في عموم " كل " إلا ما هو مخلوق ؟ ! فذاته المقدسة وصفاته غير داخلة في هذا العموم، ودخل سائر المخلوقات في عمومها. وكذا قوله تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ). ولا نقول إن " ما " مصدرية، أي: خلقكم وعملكم - إذ سياق الآية يأباه؛ لأن إبراهيم عليه السلام إنما أنكر عليهم عبادة المنحوت، لا النحت، والآية تدل على أن المنحوت مخلوق لله تعالى، وهو ما صار منحوتا إلا بفعلهم، فيكون ما هو من آثار فعلهم مخلوقا لله تعالى، ولو لم يكن النحت مخلوقا لله تعالى لم يكن المنحوت مخلوقا له، بل الخشب أو الحجر لا غير.

وذكر أبو [الحسين] البصري إمام المتأخرين من المعتزلة: أن العلم بأن العبد يحدث فعله - ضروري. وذكر الرازي أن افتقار الفعل المحدث الممكن إلى مرجح يجب وجوده عنده ويمتنع عند عدمه - ضروري، وكلاهما صادق فيما ذكره من العلم الضروري، ثم ادعاء كل منهما أن هذا العلم الضروري يبطل ما ادعاه الآخر من الضرورة - غير مسلم، بل كلاهما صادق فيما ادعاه من العلم الضروري، وإنما وقع غلطه في إنكاره ما مع الآخر من الحق. فإنه لا منافاة بين كون العبد محدثا لفعله وكون هذا الإحداث وجب وجوده بمشيئة الله تعالى، كما قال تعالى: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا). فقله: (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) - إثبات للقدر بقوله: فَأَلْهَمَهَا، وإثبات لفعل العبد بإضافة الفجور والتقوى إلى نفسه، ليعلم أنها هي الفاجرة والمتقية. وقوله بعد ذلك: (فَدَأَى فَلَاحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) - إثبات أيضا لفعل العبد، ونظائر ذلك كثيرة.

وهذه شبهة أخرى من شبه القوم التي فرقته، بل مزقتهم كل ممزق، وهي: أنهم قالوا؟ كيف يستقيم الحكم على قولكم بأن الله يعذب المكلفين على ذنوبهم وهو خلقها فيهم؟ فأين العدل في تعذيبهم على ما هو خالقه وفاعله فيهم ؟ وهذا السؤال لم يزل مطروقا في العالم على ألسنة الناس، وكل منهم يتكلم في جوابه بحسب علمه ومعرفته، وعنه تفرقت بهم الطرق: فطائفة أخرجت أفعالهم عن قدرة الله تعالى، وطائفة أنكرت الحكم والتعليل، وسدت باب السؤال. وطائفة أثبتت كسبا لا يعقل ! جعلت الثواب [والعقاب] عليه. وطائفة التزمت لأجله وقوع مقدور بين قادرين، ومفعول بين فاعلين ! وطائفة التزمت الجبر، وأن الله يعذبهم على ما لا يقدرُونَ عليه ! وهذا السؤال هو الذي أوجب هذا التفرق والاختلاف.

والجواب الصحيح عنه، أن يقال: إن ما يبتلى به العبد من الذنوب الوجودية، وإن كانت خلقا لله تعالى، فهي عقوبة له على ذنوب قبلها، فالذنب يكسب الذنب، ومن عقاب السيئة السيئة بعدها. فالذنوب كالأمرض التي يورث بعضها بعضا.

يبقى أن يقال: فالكلام في الذنب الأول الجالب لما بعده من الذنوب ؟ يقال: هو عقوبة أيضا على عدم فعل ما خلق له وفطر عليه، فإن الله سبحانه خلقه لعبادته وحده لا شريك له، وفطره على محبته، وتألوه والإجابة إليه، كما قال تعالى: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا). فلما لم يفعل ما خلق له وفطر عليه، من محبة الله وعبوديته، والإجابة إليه - عوقب على ذلك بأن زين له الشيطان ما يفعله من الشرك والمعاصي، فإنه صادف قلبا خاليا قابلا للخير والشر، ولو كان فيه الخير الذي يمنع ضده لم يتمكن منه الشر، كما قال تعالى: (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ). وقال إبليس: (بِعَزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ). وقال الله ﷻ (قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (41) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ).

والإخلاص: خلوص القلب من تأله ما سوى الله تعالى وإرادته ومحبته، فخلص لله، فلم يتمكن منه الشيطان. وأما إذا صادفه فارغا من ذلك، تمكن منه بحسب فراغه، فيكون جعله مذنباً مسيئاً في هذه الحال عقوبة له على عدم هذا الإخلاص. وهي محض العدل.

فإن قلت: فذلك العدم من خلقه فيه ؟ قيل: هذا سؤال فاسد، فإن العدم كاسمه، لا يفتقر إلى تعلق التكوين والإحداث به، فإن عدم الفعل ليس أمراً وجودياً حتى يضاف إلى الفاعل، بل هو شر محض، والشر ليس إلى الله سبحانه، كما قال p في حديث الاستفتاح: {لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك} .

وكذا في حديث الشفاعة يوم القيامة، {حين يقول الله له: يا محمد. فيقول: " لبيك وسعديك، والخير في يديك، والشر ليس إليك " } البخاري أحاديث الأنبياء (3170) ، مسلم الإيمان (222) ، أحمد (33/3) .

رواه أحمد في المسند رقم 803 ، ومسلم في الصحيح 1 : 215 في حديث طويل من حديث علي بن أبي طالب ، وكان في المطبوعة هنا " بيدك " - وأثبتنا ما هو الثابت في المسند والصحيح .

وقد أخبر الله تعالى أن تسليط الشيطان إنما هو على الذين يتولونه والذين هم به مشركون، فلما تولوه دون الله وأشركوا به معه - عوقبوا على ذلك بتسليط الله [إياه] عليهم، وكانت هذه الولاية والإشراك عقوبة خلوا القلب وفراغه من الإخلاص. فإلهام البر والتقوى ثمرة هذا الإخلاص ونتيجته، وإلهام الفجور عقوبة على خلوه من الإخلاص.

فإن قلت: إن كان هذا الترك أمراً وجودياً عاد السؤال جذعاً، وإن كان أمراً عدمياً فكيف يعاقب على العدم المحض ؟

قيل: ليس هنا ترك هو كف النفس ومنعها عما تريده وتحبه، فهذا قد يقال: إنه أمر وجودي، وإنما هنا عدم وخلو من أسباب الخير، وهذا العدم هو محض خلوها مما هو أنفع شيء لها، والعقوبة على الأمر العدمي هي بفعل السيئات، لا بالعقوبات التي تناله بعد إقامة الحجة عليه بالرسول. فله فيه عقوبتان:

إحداهما: جعله مذنباً خاطئاً، وهذه عقوبة عدم إخلاصه وإنابته وإقباله على الله، وهذه العقوبة قد لا يحس بألمها ومضرتها، لموافقتها شهوته وإرادته، وهي في الحقيقة من أعظم العقوبات.

والثانية: العقوبات المؤلمة بعد فعله للسيئات. وقد قرن الله تعالى بين هاتين العقوبتين في قوله تعالى: (فَلَمَّا نَسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ) . فهذه العقوبة الأولى، ثم قال: (حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً) فهذه العقوبة الثانية.

فإن قيل: فهل كان يمكنهم أن يأتوا بالإخلاص والإنابة والمحبة له وحده - من غير أن يخلق ذلك في قلوبهم ويجعلهم مخلصين له منيبين له محبين له ؟ أم ذلك محض جعله في قلوبهم وإلقائه فيها ؟

قيل: لا، بل هو محض منته وفضله، وهو من أعظم الخير الذي هو بيده، والخير كله في يديه، ولا يقدر أحد أن يأخذ من الخير إلا ما أعطاه، ولا يتقي من الشر إلا ما وقاه.

فإن قيل: فإذا لم يخلق ذلك في قلوبهم ولم يوفقوا له، ولا سبيل لهم إليه بأنفسهم، عاد السؤال وكان منعهم منه ظلماً، ولزمكم القول بأن العدل هو تصرف المالك في ملكه بما يشاء، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون - قيل: لا يكون سبحانه بمنعهم من ذلك ظالماً، وإنما يكون المانع ظالماً إذا منع غيره حقاً لذلك الغير عليه، وهذا هو الذي حرّمه الرب على نفسه وأوجب على نفسه خلافه. وأما إذا منع غيره ما ليس بحق له، بل هو محض فضله ومنته عليه - لم يكن ظالماً بمنعه، فمنع الحق ظلم، ومنع الفضل والإحسان عدل. وهو سبحانه العدل في منعه، كما هو المحسن المنان بعطائه .

فإن قيل: فإذا كان العطاء والتوفيق إحساناً ورحمة، فهلا كان العمل له والغلبة، كما أن رحمته تغلب غضبه ؟

قيل: المقصود في هذا المقام بيان أن هذه العقوبة المترتبة على هذا المنع، والمنع المستلزم للعقوبة - ليس بظلم، بل هو محض العدل.

وهذا سؤال عن الحكمة التي أوجبت تقديم العدل على الفضل في بعض المحال، وهلا سوى بين العباد في الفضل؟ وهذا السؤال حاصله: لم يتفضل على هذا ولم يتفضل على الآخر؟ وقد تولى الله سبحانه الجواب عنه بقوله: (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ). وقوله: (لَيْتَا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ). ولما سأله اليهود والنصارى عن تخصيص هذه الأمة بأجرين وإعطائهم [هم أجرا أجرا] {قال: هل ظلمتكم من حقكم شيئا؟ قالوا: لا. قال: فذلك فضلي أوتيته من أشياء}. وليس في الحكمة إطلاع كل فرد من أفراد الناس على كمال حكمته في عطائه ومنعه، بل إذا كشف الله عن بصيرة العبد، حتى أبصر جزءا يسيرا من حكمته في خلقه، وأمره وثوابه وعقابه، وتخصيصه وحرمانه، وتأمل أحوال محال ذلك - استدل بما علمه على ما لم يعلمه. ولما استشكل أعداؤه المشركون هذا التخصيص، قالوا: (أَهْؤْلَاءَ مَنَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ بَيِّنَاتٍ)؟ قال تعالى مجيبا لهم: (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ). فتأمل هذا الجواب، تر في ضمنه أنه سبحانه أعلم بالمحل الذي يصلح لغرس شجرة النعمة فتثمر بالشكر من المحل الذي لا يصلح لغرسها، فلو غرست فيه لم تثمر، فكان غرسها هناك ضائعا لا يليق بالحكمة، كما قال تعالى: (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) في الأصل: (أجرهم). والصواب ما أنبتاه

المحاضرة الرابعة عشر

الْعَبْدُ فَاعِلٌ لِّفَعْلِهِ حَقِيقَةٌ وَلَكِنْ مَخْلُوقٌ لِلَّهِ

فإن قيل: إذا حكمتكم باستحالة الإيجاد من العبد، فإذا لا فعل للعبد أصلا؟ قيل: العبد فاعل لفعله حقيقة، وله قدرة حقيقة. قال تعالى: (وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ). (فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) وأمثال ذلك.

وإذا ثبت كون العبد فاعلا، فأفعاله نوعان:

نوع يكون منه من غير اقتران قدرته وإرادته، فيكون صفة له ولا يكون فعلا، كحركات المرتعش.

ونوع يكون منه مقارنا لإيجاد قدرته واختياره، فيوصف بكونه صفة وفعلا وكسبا للعبد، كالحركات الاختيارية. والله تعالى هو الذي جعل العبد فاعلا مختارا، وهو الذي يقرر على ذلك وحده لا شريك له. ولهذا أنكر السلف الجبر، فإن الجبر لا يكون إلا من عاجز، فلا يكون إلا مع الإكراه، يقال: للأب ولاية إجبار البكر الصغيرة على النكاح، وليس له إجبار الثيب البالغ، أي: ليس له أن يزوجهامكرهه.

لَا يُوصَفُ اللَّهُ بِالْإِجْبَارِ

والله تعالى لا يوصف بالإجبار بهذا الاعتبار، لأنه سبحانه خالق الإرادة والمراد قادر على أن يجعله مختارا بخلاف غيره. ولهذا جاء في ألفاظ الشارع: "الجبَل" دون "الجبر"، كما قال م لأشج عبد القيس: {إن فيك لخلقين يحبهما الله: الحلم والأناة"، فقال: أخلقين تخلقتهما؟ أم خلقين جبلت عليهما؟ فقال: "بل خلقان جبلت عليهما" فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله تعالى {(). والله تعالى إنما يعذب عبده على فعله الاختياري. والفرق بين العقاب على الفعل الاختياري وغير الاختياري مستقر في الفطر والعقول.

وإذا قيل: خلق الفعل مع العقوبة عليه ظلم! كان بمنزلة أن يقال: خلق أكل السم ثم حصول الموت به ظلم!! فكما أن هذا سبب للموت، فهذا سبب للعقوبة، ولا ظلم فيهما.

فالحاصل: أن فعل العبد فعل له حقيقة، ولكنه مخلوق لله تعالى، ومفعول لله، ليس هو نفس فعل الله. ففرق بين الفعل والمفعول، والخلق والمخلوق.

وإلى هذا المعنى أشار الشيخ رحمه الله بقوله: "وأفعال العباد خلق الله وكسب من العباد" - أثبت للعباد فعلا وكسبا، وأضاف الخلق إلى الله تعالى. والكسب: هو الفعل الذي يعود على فاعله منه نفع أو ضرر، كما قال تعالى: (لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ).

التَّكْلِيفُ بِحَسَبِ الطَّاقَةِ

قوله: (ولم يكلفهم الله تعالى إلا ما يطيقون، ولا يطيقون إلا ما كلفهم. وهو تفسير " لا حول ولا قوة إلا بالله "، نقول: لا حيلة لأحد، ولا تحول لأحد، ولا حركة لأحد عن معصية الله، إلا بمعونة الله، ولا قوة لأحد على إقامة طاعة الله والثبات عليها إلا بتوفيق الله، وكل شيء يجري بمشيئة الله تعالى وعلمه وقضائه وقدره. غلبت مشيئته المشيئات كلها، وعكست إرادته الإرادات كلها، وغلب قضاؤه الحيل كلها. يفعل ما يشاء، وهو غير ظالم أبداً. لا يسأل عما يفعل وهم يسألون).

ش: فقوله: " لم يكلفهم الله تعالى إلا ما يطيقون " - قال تعالى: (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا). (لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا).

وعن أبي الحسن الأشعري أن تكليف ما لا يطاق جائز عقلاً، ثم تردد أصحابه أنه: هل ورد به الشرع أم لا ؟ واحتج من قال بوروده بأمر أبي لهب بالإيمان، فإنه تعالى أخبر بأنه لا يؤمن، وأنه سيصلى ناراً ذات لهب، فكان مأموراً بأن يؤمن بأنه لا يؤمن. وهذا تكليف بالجمع بين الضدين، وهو محال. والجواب عن هذا بالمنع: فلا نسلم بأنه مأمور [بأن يؤمن] بأنه لا يؤمن، والاستطاعة التي بها يقدر على الإيمان كانت حاصلة، فهو غير عاجز عن تحصيل الإيمان، فما كلف إلا ما يطيقه كما تقدم في تفسير الاستطاعة. ولا يلزم قوله تعالى للملائكة: (أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ). مع عدم علمهم بذلك، ولا للمصورين يوم القيامة: {أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ}، وأمثال ذلك - لأنه ليس بتكليف طلب فعل يثاب فاعله ويعاقب تاركه، بل هو خطاب تعجيز.

وكذا لا يلزم دعاء المؤمنين في قوله تعالى: (رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ) لأن تحميل ما لا يطاق ليس تكليفاً، بل يجوز أن يحمله جبلاً لا يطيقه فيموت. وقال ابن الأنباري: أي لا تحملنا ما يثقل علينا أداؤه وإن كنا مطيقين له على تجشم وتحمل مكروهه، قال: فخطب العرب على حسب ما تعقل، فإن الرجل منهم يقول للرجل يبغضه: ما أطيق النظر إليه، وهو مطيق لذلك، لكنه يثقل عليه. ولا يجوز في الحكمة أن يكلفه بحمل جبل بحيث لو فعل يثاب ولو امتنع يعاقب، كما أخبر سبحانه عن نفسه أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها.

ومنهم من يقول: يجوز تكليف الممتنع عادة، دون الممتنع لذاته، لأن ذلك لا يتصور وجوده، فلا يعقل الأمر به، بخلاف هذا.

ومنهم من يقول: ما لا يطاق للعجز عنه لا يجوز تكليفه، بخلاف ما لا يطاق للاشتغال بضده، فإنه يجوز تكليفه. وهؤلاء موافقون للسلف والأئمة في المعنى، لكن كونهم جعلوا ما يتركه العبد لا يطاق لكونه تاركاً له مشغولاً بضده - بدعة في الشرع واللغة. فإن مضمونه أن فعل ما لا يفعله العبد لا يطيقه !

وهم التزموا هذا، لقولهم: إن الطاقة - التي هي الاستطاعة وهي القدرة - لا تكون إلا مع الفعل ! فقالوا: كل من لم يفعل فعلاً، فإنه لا يطيقه ! وهذا خلاف الكتاب والسنة وإجماع السلف، وخلاف ما عليه عامة العقلاء، كما تقدمت الإشارة إليه عند ذكر الاستطاعة.

وأما ما لا يكون إلا مقارناً للفعل، فذلك ليس شرطاً في التكليف، مع أنه في الحقيقة إنما هناك إرادة الفعل. وقد يحتجون بقوله تعالى: (مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ). (إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا). وليس في ذلك إرادة ما سموه استطاعة، وهو ما لا يكون إلا مع الفعل، فإن الله ذم هؤلاء على كونهم لا يستطيعون السمع، ولو أراد بذلك المقارن لكان جميع الخلق لا يستطيعون السمع قبل السمع ! فلم يكن لتخصيص هؤلاء بذلك معنى، ولكن هؤلاء لبغضهم الحق وثقله عليهم، إما حسداً لصاحبه، وإما اتباعاً للهوى - لا يستطيعون السمع. وموسى عليه السلام لا يستطيع الصبر، لمخالفة ما يراه لظاهر الشرع، وليس عنده منه علم. وهذه لغة العرب وسائر الأمم، فمن يبغض غيره يقال: إنه لا يستطيع الإحسان إليه .

ومن يحبه يقال: إنه لا يستطيع عقوبته، لشدة محبته له، لا لعجزه عن عقوبته، فيقال ذلك للمبالغة، كما تقول: لأضربنه حتى يموت، والمراد الضرب الشديد. وليس هذا عذراً، فلو لم يأمر العباد إلا بما يهونه لفسدت السماوات والأرض، قال تعالى: (وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ).

وقوله: " ولا يطيقون إلا ما كلفهم به "، إلى آخر كلامه - أي: ولا يطيقون إلا ما أقدرهم عليه. وهذه الطاقة هي التي من نحو التوفيق، لا التي من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات، و "لا حول ولا قوة إلا بالله" - دليل على إثبات القدر. وقد فسرهما الشيخ بعدها.

ولكن في كلام الشيخ إشكال: فإن التكليف لا يستعمل بمعنى الإقدار، وإنما يستعمل بمعنى الأمر والنهي، وهو قال: " لا يكلفهم إلا ما يطيقون، ولا يطيقون إلا ما كلفهم ". وظاهره أنه يرجع إلى معنى واحد، ولا يصح ذلك، لأنهم يطيقون فوق ما كلفهم به، لكنه سبحانه يريد بعباده اليسر والتخفيف، كما قال تعالى: (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ). وقال تعالى: (يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ). وقال تعالى: (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمُ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ). فلو زاد فيما كلفنا به لأطقتنا، ولكنه تفضل علينا ورحمنا، وخفف عنا، ولم يجعل علينا في الدين من حرج. ويجاب عن هذا الإشكال بما تقدم: أن المراد الطاقة التي من نحو التوفيق، لا من جهة التمكن وسلامة الآلات، لكن في العبارة قلق، فتأمل.

مسألة: هل رأى رسول الله ربه ليلة الإسراء؟

الصحيح أنه رآه بقلبه، ولم يره بعين رأسه، وهو الذي اختاره، شارح الطحاوية (ابن أبي العز)، وابن حجر في الفتح.

الإيمان باليوم الآخر يتضمن:

• الحديث عن الروح، وفيه:
- حقيقة الروح

- هل الروح قديمة أم مخلوقة؟
- هل النفس هي الروح؟
- مراتب النفوس.
- هل تموت الروح؟

تمهيد:

الروح خلق من أعظم مخلوقات الله شرفها الله وكرمها غاية التشريف والتكريم فنسبها لذاته العلية في كتابه قال الله تعالى: (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ).

ومن جلاله وعظمته هذا التشريف لهذا المخلوق أن الله اختص بالعلم الكامل بالروح فلا يمكن لأي مخلوق كائن من كان أن يعلم كل العلم عن هذا المخلوق إلا ما أخبر به الله تعالى

قال الله تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا).

الحديث عن الروح:

قال الطحاوي رحمه الله: (ونؤمن بملك الموت، الموكل بقبض أرواح المؤمنين)

حقيقة الروح:

الروح جسم نوراني علوي، مخالف لماهية الجسم، خفيف حي متحرك، ينفذ في جوهر الأعضاء، ويسري فيها سريان الماء في الورد، والدهن في الزيتون.

وقد أخبر الله بتوفيها وإرسالها، ووصفها بالإخراج والخروج والقبض.

الحديث عن الروح:

قال تعالى: {الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى..}.
وقال تعالى: {ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم..}.
وقال صلى الله عليه وسلم : ”إن الروح إذا قبض تبعه البصر“.

الحديث عن الروح :

هل الروح قديمة أم مخلوقة؟

أجمعت الرسل عليهم الصلاة والسلام على أن الروح محدثة مخلوقة، مصنوعة مربية مدبرة.

قال الله تعالى: {الله خالق كل شيء}. ومن قال بأن الروح قديمة استدلل بقول الله تعالى: { فإذا سويته ونفخت فيه من روحي} ، والجواب:

المضاف إلى الله تعالى نوعان:

الحديث عن الروح :

1- إضافة صفات لا تقوم بأنفسها كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر. فهذه إضافة صفة إلى الموصوف بها وهو الله عز وجل.

2- إضافة أعيان منفصلة عنه، كالبيت والناقة والعبد والرسول والروح ، فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه، وهي إضافة تقتضي التخصيص والتشريف.

الحديث عن الروح :

هل النفس هي الروح؟

النفس والروح يتحد مدلولهما تارة ويختلف تارة.

مسميات النفس:

- 1- الروح إذا اتصلت بالبدن تسمى نفساً.

- 2- وتطلق النفس على الدم ، حيث يقول الفقهاء: أصاب دماً.

3- والنفس: العين، يقولون أصابت فلاناً نفس: أي عين.

4- والنفس: الذات ، قال تعالى: { فسلموا على أنفسكم}، {فلا تقتلوا أنفسكم}.

الحديث عن الروح :

مسميات الروح:

1- النفس إذا جردت عن البدن تسمى روحاً.

2- تطلق الروح على القرآن، قال تعالى : {وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا}.

3- والروح جبريل عليه السلام قال تعالى: {نزل به الروح الأمين}.

4- الهواء المتردد في بدن الإنسان.

5- القوى التي في البدن: الروح الباصر، الروح السامع.

الحديث عن الروح :

مراتب النفوس:

لابن آدم ثلاثة أنفس:

الأولى: مطمئنة، قال تعالى: { يا أيها النفس المطمئنة }.

الثانية : لوامة، قال تعالى : { ولا أقسم بالنفس اللوامة }.

الثالثة : الأمارة، قال تعالى : { إن النفس لأمارة بالسوء }.

والتحقيق أنها نفس واحدة، فهي أمارة بالسوء، فإذا عارضها الإيمان صارت لوامة، فإذا قوي الإيمان صارت مطمئنة.

الحديث عن الروح :

هل تموت الروح؟

الصواب : أن موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها، وخروجها عنها، فإن أريد بموتها هذا القدر ، فهي ذائقة الموت، وإن أريد أنها تقنى وتعدم بالكلية، فهي لا تموت بهذا الاعتبار، بل هي باقية بعد خلقها في نعيم أو عذاب.

قال تعالى: { لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى }، وتلك الموتة هي مفارقة الروح الجسد.

تتمة الإيمان باليوم الآخر

• عذاب القبر ونييمه، وفيه:

- أدلته من القرآن والسنة

- عذاب القبر ونييمه بلا كيفية معلومة

- سؤال القبر للروح والجسد معاً

- هل عذاب القبر دائم أم منقطع؟

- مستقر الأرواح بعد الموت.

عذاب القبر ونييمه :

قال الطحاوي رحمه الله : (وبعذاب القبر لمن كان له أهلاً، وسؤال منكر ونكير في قبره عن ربه ودينه ونبيه، على ما جاءت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعن الصحابة رضوان الله عليهم . والقبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران)

أدلته من القرآن والسنة:

قال تعالى: { وحق بال فرعون سوء العذاب النار يعرضون عليها غدواً وعشياً تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب }

وقال تعالى: { وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون }

عذاب القبر ونعيمه :

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتبهينا إلى القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ مستقبل القبلة، وجلسنا حوله وكان على رؤوسنا الطير وفي يده عود ينكت في الأرض، فجعل ينظر إلى السماء وينظر إلى الأرض وجعل يرفع بصره ويخفضه ثلاثاً، فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر» مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ثلاثاً» ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس ومعهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة - وفي رواية المطمئنة - اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان،

عذاب القبر ونعيمه :

قال فيأتيه ملكان شديدا الانتهاز فينتهرانه ويجلسانه فيقولان له من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ، فيقولان له: وما أعلمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فأمنت به وصدقت، فينتهره فيقول: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ وهي آخر فتنة تعرض على المؤمن، فذلك حين يقول الله عز وجل: { يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا فيقول: ربي الله وديني الإسلام ونبي محمد ﷺ فينادي مناد في السماء، أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة.

عذاب القبر ونعيمه

وفيه عن العبد الكافر: "ويأتيه ملكان شديدا الانتهاز فينتهرانه ويجلسانه فيقولان له من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان: فما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فلا يهتدي لاسمه، فيقال: محمد! فيقول: هاه هاه لا أدري، سمعت الناس يقولون ذاك! فيقال: لا دريت ولا تلتوت، فينادي مناد من السماء أن كذب، فأفرشوا له من النار وافتحوا له باباً إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه"

عذاب القبر ونعيمه

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: مرّ النبي ﷺ بمقبرين، فقال: إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير؛ أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة، ثم أخذ جريدة رطبة فشققها نصفين، فغرز في كل قبر واحدة. فقالوا: يا رسول الله لم فعلت هذا؟ قال: لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا" أخرجه البخاري ومسلم.

عذاب القبر ونعيمه

عذاب القبر ونعيمه بلا كيفية معلومة:

تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به، ولا نتكلم في كيفية.

والروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق، متغايرة الأحكام:

1- تعلقها به في بطن الأم جنيناً.

2- تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض.

3- تعلقها به في حال النوم من وجهه، ومفارقة له من وجهه.

عذاب القبر ونعيمه

4- تعلقها به في البرزخ؛ فإنه ثبت في الصحيحين أن الميت يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه.

5- تعلقها به يوم بعث الأجساد، وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن.

والحاصل أن الدور ثلاث:

- دار الدنيا: وجعل الله أحكامها على الأبدان والأرواح تبع لها.
 - دار البرزخ: وجعل الله أحكامها على الأرواح والأبدان تابعة لها.
 - دار القرار: وفيها الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد جميعاً
- عذاب القبر ونعيمه

سؤال القبر للروح والجسد معاً:

الأحاديث الصحيحة تبين أن عذاب القبر يكون للنفس والبدن جميعاً، باتفاق أهل السنة والجماعة تنعم النفس وتعذب مفردة عن البدن ومتصلة به.

وليعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه، قبر أم لم يقبر، أكلته السباع أو احترق حتى صار رماداً ونسف في الهواء، أو صلب أو غرق في البحر وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور.

وسؤال القبر يظهر من مجمل النصوص أنه ليس خاصاً بهذه الأمة.

عذاب القبر ونعيمه:

- هل عذاب القبر دائم أم منقطع؟
- جوابه أنه نوعان:

الأول : دائم كما قال تعالى : {النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب}.

وفي قصة الكافر من حديث البراء بن عازب: ” ثم يفتح له باب إلى النار فينظر إلى مقعده فيها حتى تقوم الساعة“.

الثاني: أنه مدة ثم ينقطع، وهو عذاب بعض العصاة الذين خفت جرائمهم فيعذب بحسب جرمه ثم يخفف عنه.

عذاب القبر ونعيمه:

مستقر الأرواح بعد الموت:

الأرواح في البرزخ متفاوتة، فمنها: أرواح في أعلى عليين، في الملاء الأعلى وهي أرواح الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ومنها أرواح في حواصل طير خضر ، ترد أنهار الجنة، وتأكُل من ثمارها وهي أرواح بعض الشهداء لأن بعض الشهداء تحبس روحه عن دخول الجنة حتى يقضى دينه.

ومنها ما يكون محبوساً على باب الجنة، أو محبوساً في قبره، أو محبوساً في الأرض، ومنها أرواح تكون في تنور الزناة والزواني، وأرواح أكلة الربا تسبح في نهر الدم وتلقم الحجارة كل ذلك تشهد له السنة.

تتمة الإيمان باليوم الآخر

أولاً/ ما ينتفع به الميت من عمل الأحياء، وفيه:

- موطن الاتفاق في هذا الأمر وموطن الخلاف.
- الأدلة على انتفاع الميت بغير ما تسبب فيه.
- الجواب على استدلالات النافين.

ثانياً/ أشرط الساعة، وفيه:

- ذكر الدجال ونزول عيسى عليه السلام.
- خروج الدابة وطلوع الشمس من مغربها.

أولاً/ ما ينتفع به الميت من عمل الأحياء :

قال الطحاوي رحمه الله : (وفي دعاء الأحياء وصدقاتهم منفعة للأموات)

موطن الاتفاق في هذا الأمر:

اتفق أهل السنة أن الأموات ينتفعون من سعي الأحياء بأمرين:

1- ما تسبب إليه الميت في حياته، ودليله قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به من بعده" أخرجه مسلم وغيره.

2- دعاء المسلمين واستغفارهم له، والصدقة والحج.

أولاً/ ما ينتفع به الميت من عمل الأحياء :

موطن الخلاف:

اختلفوا في العبادات البدنية، كالصوم والصلاة، وقراءة القرآن والذكر.

ذهب أبو حنيفة وأحمد وجمهور السلف إلى وصولها.

والمشهور من مذهب مالك والشافعي عدم وصولها.

وذهب أهل الكلام إلى عدم وصول شيء ألبتة، لا الدعاء ولا غيره.

أولاً/ ما ينتفع به الميت من عمل الأحياء :

الأدلة على انتفاع الميت بغير ما تسبب فيه:

دل على ذلك الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس.

1- الكتاب:

قال تعالى: {والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان} فدلّت الآية على انتفاع الأموات باستغفار الأحياء.

2- السنة: في وصول الدعاء: ما صح من الدعاء للميت في صلاة الجنازة ، وبعد دفنه، وعند زيارة القبور.

أولاً/ ما ينتفع به الميت من عمل الأحياء :

وفي الصدقة: حديث عائشة رضي الله عنها : أن رجلاً أتى النبي p، فقال: يا رسول الله، إن أمي أفتلنت نفسها، ولم توص، وأظنها لو تكلمت تصدقت، أفلها أجر إن تصدقت عنها؟ قال: نعم". أخرجه البخاري.

وفي الصوم: قال p: " من مات وعليه صيام صام عنه وليه" أخرجه البخاري ومسلم.

وفي الحج: أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي p فقالت: إن أمي نذرت أن تحج حتى ماتت، أفأحج عنها؟ قال: " نعم حجي عنها.." أخرجه البخاري.

أولاً/ ما ينتفع به الميت من عمل الأحياء :

3- الإجماع:

دل على انتفاع الميت بالدعاء إجماع الأمة على الدعاء له في صلاة الجنازة، وأجمع المسلمون على أن قضاء دينه يسقطه من ذمة الميت، ولو كان من غير تركته.

4- القياس:

نقول: الثواب حق العامل، فإذا وهبه لأخيه المسلم لم يمنع من ذلك، كما لم يمنع من هبة ماله له في حياته، وكل ذلك جار على قواعد الشرع وهو محض القياس.

أولاً/ ما ينتفع به الميت من عمل الأحياء :

الجواب على استدلالات النافين:

1- استدلال النافون بقوله تعالى: {وَأَنْ لِّسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى}، ويجاب عنه بجوابين:

الأول: أن الإنسان بسعيه وحسن عشرته اكتسب الأصدقاء، وأولد الأولاد، وأنكح الأزواج، فترحموا عليه ودعوا له، وأهدوا له ثواب الطاعات، فكان ذلك أثر سعيه.

الثاني: أن القرآن لم ينف انتفاع الرجل بسعي غيره، وإنما نفى ملكه لغير سعيه. وفي هذا قطع لطمع نجاته بعمل آبائه وسلفه ومشايخه.

أولاً/ ما ينتفع به الميت من عمل الأحياء :

2- وأما تفريق من فرق بين العبادات المالية والبدنية، فقد شرع النبي صلى الله عليه وسلم الصوم عن الميت، وكذلك عبادة الحج ببدنية، وليس المال ركناً فيه، حيث إن المكى يجب عليه الحج إذا قدر على المشي إلى عرفات، من غير شرط المال.

وأما قراءة القرآن وإهداؤها للميت تطوعاً بغير أجره فهذا يصل إليه ثوابه كما يصل ثواب الصوم والحج والدعاء الذي أدن لهم فيها، ولم يمنعهم مما سوى ذلك، وهو مذهب الحنفية.

ثانياً/ أشرط الساعة :

قال الطحاوي رحمه الله: (ونؤمن بأشرط الساعة: من خروج الدجال، ونزول عيسى بن مريم عليه السلام من السماء، ونؤمن بطلوع الشمس من مغربها، وخروج دابة الأرض من موضعها).

عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ ، قَالَ : اَطَّلَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَكَّرُ ، فَقَالَ : " مَا تَذَكَّرُونَ ؟ " ، قَالُوا : نَذْكُرُ السَّاعَةَ ، قَالَ : " إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ ، فَذَكَرَ الدُّخَانَ ، وَالدَّجَالَ ، وَالدَّابَّةَ ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ

مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَتُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ خَسَفَتْ بِالْمَشْرِقِ ، وَخَسَفَتْ بِالْمَغْرِبِ ، وَخَسَفَتْ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ " . رواه مسلم.

ثانياً/ أشرط الساعة: ذكر الدجال ونزول عيسى عليه السلام: عن أنس رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: " ما من نبي إلا أُنذر قومه الأعور الدجال ألا إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور ومكتوب بين عينيه ك ف ر " .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة خير من الدنيا وما فيها " . أخرجه البخاري ومسلم.

ويخرج يأجوج ومأجوج في أيام نزول المسيح بعد قتله الدجال، فيهلكهم الله أجمعين في ليلة واحدة ببركة دعائه عليهم.

ثانياً/ أشرط الساعة: خروج الدابة وطلوع الشمس من مغربها : قال تعالى: { وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون } . وقال تعالى: { يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ، قل انتظروا إنا منتظرون } . وخروج دابة الأرض أول الآيات الأرضية التي ليست مألوفة، وطلوع الشمس من مغربها أول الآيات السماوية غير المألوفة.

المحاضرة الخامسة عشر

الْفَرْقُ بَيْنَ الْقَضَاءِ الشَّرْعِيِّ وَالْقَضَاءِ الْكُونِيِّ

الْفَرْقُ بَيْنَ الْقَضَاءِ الشَّرْعِيِّ وَالْقَضَاءِ الْكُونِيِّ

وقوله: " وكل شيء يجري بمشيئة الله وعلمه وقضائه وقدره " .

يريد بقضائه القضاء الكوني لا الشرعي، فإن القضاء يكون كونياً وشرعياً، وكذلك الإرادة والأمر والإذن والكتاب والحكم والتحريم والكلمات، ونحو ذلك.

أما القضاء الكوني، ففي قوله تعالى: (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ).

والقضاء الديني الشرعي، في قوله تعالى: (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِلَٰهًا).

وأما الإرادة الكونية والدينية، فقد تقدم ذكرها عند قول الشيخ: " ولا يكون إلا ما يريد " .

وأما الأمر الكوني، ففي قوله تعالى: (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ). وكذا قوله تعالى: (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا) في أحد الأقوال، وهو أقواها.

والأمر الشرعي، في قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ) الآية. وقوله: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا).

وأما الإذن الكوني، ففي قوله تعالى: (وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ).

والإذن الشرعي، في قوله تعالى: (مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ).

وأما الكتاب الكوني، ففي قوله تعالى: (وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ۚ). وقوله تعالى: (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ).

والكتاب الشرعي الديني، في قوله تعالى: (وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ). (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ).

وأما الحكم الكوني، ففي قوله تعالى عن ابن يعقوب عليه السلام: (فَلَنْ أُنْزِلَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْتِيَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ). وقوله تعالى: (قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ). والحكم الشرعي، في قوله تعالى: (أَجَلْتُ لَكُمْ بَهِيمَةَ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُنْتَلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ).

وأما التحريم الكوني، ففي قوله تعالى: (قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۖ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ).

(وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ).

والتحريم الشرعي، في قوله: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ). و (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ امْمَهَاتُكُمُ الْاَيَةِ.

وأما الكلمات الكونية، ففي قوله تعالى: (وَنَمَتَّ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ). وفي قوله {أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر} .

والكلمات الشرعية الدينية، في قوله تعالى: (وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ).

كَتَبَ اللَّهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ

وقوله: " يفعل ما يشاء، وهو غير ظالم أبداً " - الذي دل عليه القرآن من تنزيه الله نفسه عن ظلم العباد، يقتضي قولاً وسطاً بين قولي القدرية والجبرية، فليس ما كان من بني آدم ظلماً وقيحاً يكون منه ظلماً وقيحاً، كما تقول القدرية والمعتزلة ونحوهم ! فإن ذلك تمثيل لله بخلقه ! وقياس له عليهم ! هو الرب الغني القادر، وهم العباد الفقراء المقهورون. وليس الظلم عبارة عن الممتنع الذي لا يدخل تحت القدرة، كما يقوله من يقوله من المتكلمين وغيرهم، يقولون: إنه يمتنع أن يكون في الممكن المقدور ظلم ! بل كل ما كان ممكناً فهو منه - لو فعله - عدل، إذ الظلم لا يكون إلا من مأمور من غيره منه، والله ليس كذلك. فإن قوله تعالى: (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلُمًا وَلَا هَضْمًا) وقوله تعالى: (مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدِيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

وقوله تعالى: (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ) وقوله تعالى: (وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۚ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) وقوله تعالى: (الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۖ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) يدل على نقيض هذا القول.

ومنه قوله الذي رواه عنه رسوله: {يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا} (. فهذا دل على شيئين:

أحدهما: أنه حرم على نفسه الظلم، والممتنع لا يوصف بذلك.

الثاني: أنه أخبر أنه حرمه على نفسه، كما أخبر أنه كتب على نفسه الرحمة، وهذا يبطل احتجاجهم بأن الظلم لا يكون إلا من مأمور منه، والله ليس كذلك.

فيقال لهم: هو سبحانه كتب على نفسه الرحمة، وحرم على نفسه الظلم، وإنما كتب على نفسه وحرم على نفسه ما هو قادر عليه، لا ما هو ممتنع عليه. وأيضاً: فإن قوله: (فَلَا يَخَافُ ظُلُمًا وَلَا هَضْمًا) - قد فسره السلف، بأن الظلم: أن توضع عليه سيئات غيره، والهضم: أن ينقص من حسناته، كما قال تعالى: (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ).

وأيضاً فإن الإنسان لا يخاف الممتنع الذي لا يدخل تحت القدرة حتى يأمن من ذلك، وإنما يأمن مما يمكن، فلما آمنه من الظلم بقوله: (فَلَا يَخَافُ) - علم أنه ممكن مقدور عليه. وكذا قوله: (لَا تَخْصِمُوا لَدِيَّ) إلى قوله: (وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) - لم يعن بها نفي ما لا يقدر عليه ولا يمكن منه، وإنما نفي ما هو مقدور عليه ممكن، وهو أن يجزوا بغير أعمالهم.

فعلى قول هؤلاء ليس الله منزها عن شيء من الأفعال أصلاً، ولا مقدساً عن أن يفعله، بل كل ممكن فإنه لا ينزهه عن فعله، بل فعله حسن، ولا حقيقة للفعل السوء، بل ذلك ممتنع، والممتنع لا حقيقة له !! والقرآن يدل على نقيض هذا القول، في مواضع، نزه الله نفسه فيها عن فعل ما لا يصلح له ولا ينبغي له، فعلم أنه منزه مقدس عن فعل السوء والفعل المعيب المذموم، كما أنه منزه مقدس عن وصف السوء والوصف المعيب المذموم، وذلك كقوله تعالى: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ

عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجِعُونَ). فإنه نزه نفسه عن خلق الخلق عبثًا، وأنكر على من حسب ذلك، وهذا فعل. وقوله تعالى (أَفَتَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ). وقوله تعالى: (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ) .

- إنكار منه على من جوز أن يسوي الله بين هذا وهذا. وكذا قوله: (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) - إنكار على من حسب أنه يفعل هذا، وإخبار أن هذا حكم سيء قبيح، وهو مما ينزه الرب عنه.

وروى أبو داود، والحاكم في المستدرک، من حديث ابن عباس، وعبادة بن الصامت، وزيد بن ثابت، عن النبي ﷺ أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه، لعذبتهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيرا لهم من أعمالهم} .

وهذا الحديث مما يحتج به الجبرية، وأما القدريّة فلا يتأتى على أصولهم الفاسدة ! ولهذا قابلوه إما بالتكذيب أو بالتأويل !!

وأسعد الناس به أهل السنة، الذين قابلوه بالتصديق، وعلموا من عظمة الله تعالى وجلاله، قدر نعم الله على خلقه، وعدم قيام الخلق بحقوق نعمه عليهم، إما عجزا، وإما جهلا، وإما تفريطا وإضاعة، وإما تقصيرا في المقدور من الشكر، ولو من بعض الوجوه. فإن حقه على أهل السماوات والأرض أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، وتكون قوة الحب والإنابة، والتوكل والخشية والمراقبة والخوف والرجاء -: جميعها متوجهة إليه، ومتعلقة به، بحيث يكون القلب عاكفا على محبته وتألّفه، بل على إفراده بذلك، واللسان محبوسا على ذكره، والجوارح وقفا على طاعته.

ولا ريب أن هذا مقدور في الجملة، ولكن النفوس تشح به، وهي في الشح على مراتب لا يحصيها إلا الله تعالى. وأكثر المطيعين تشح به نفسه من وجه، وإن أتى به من وجه آخر.

فأين الذي لا تقع منه إرادة تراحم مراد الله وما يحبه منه ؟ ومن [ذا] الذي لم يصدر منه خلاف ما خلق له، ولو في وقت من الأوقات ؟ فلو وضع سبحانه عدله على أهل سماواته وأرضه، لعذبهم بعده، ولم يكن ظالما لهم. وغاية ما يقدر، توبة العبد من ذلك واعترافه، وقبول التوبة محض فضله وإحسانه، وإلا فلو عذب عبده على جنايته لم يكن ظالما ولو قدر أنه تاب منها. لكن أوجب على نفسه - بمقتضى فضله ورحمته - أنه لا يعذب من تاب، وقد كتب على نفسه الرحمة، فلا يسع الخلاق إلا رحمته وعفوه، ولا يبلغ عمل أحد منهم أن ينجو به من النار، أو يدخل الجنة، كما قال أطوع الناس لربه، وأفضلهم عملا، وأشدهم تعظيما لربه وإجلالا: {لن ينجي أحدا منكم عمله}، قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ قال: " ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل }

وسأله الصديق دعاء يدعو به في صلاته، فقال: {قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم} . فإذا كان هذا حال الصديق، الذي هو أفضل الناس بعد الأنبياء والمرسلين - فما الظن بسواه ؟ بل إنما صار صديقا بتوفيقه هذا المقام حقه، الذي يتضمن معرفة ربه، وحقه وعظمته، وما ينبغي له، وما يستحقه على عبده، ومعرفة تقصيره. فسحقا وبعدا لمن زعم أن المخلوق يستغني عن مغفرة ربه ولا يكون به حاجة إليها ! وليس وراء هذا الجهل بالله وحقه غاية !! فإن لم يتسع فهمك لهذا، فانزل إلى وطأة النعم، وما عليها من الحقوق، ووازن من شكرها وكفرها، فحينئذ تعلم أنه سبحانه لو عذب أهل سماواته وأرضه، لعذبهم وهو غير ظالم لهم.

الإيمان بأشراط الساعة

قَوْلُهُ: (وَنُؤْمِنُ بِأَشْرَاطِ السَّاعَةِ: مِنْ خُرُوجِ الدَّجَالِ، وَنُزُولِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ السَّمَاءِ، وَنُؤْمِنُ بِطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجِ دَابَّةِ الْأَرْضِ مِنْ مَوْضِعِهَا).

ش: عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ، قَالَ: {أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي غَزْوَةِ [بَنِي] أَدَمَ، فَقَالَ: " اَعْدُدْ سِنًا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ: مَوْتِي، ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، ثُمَّ مَوْتَانِ يَأْخُذُ فِيكُمْ كَقُعَاصِ الْعَنَمِ، ثُمَّ اسْتِفَاضَةُ الْمَالِ حَتَّى يُعْطَى الرَّجُلُ مِائَةً دِينَارٍ فَيُظْلَمُ سَاحِطًا، ثُمَّ فِتْنَةٌ لَا يَبْقَى بَيْتٌ مِنَ الْعَرَبِ إِلَّا دَخَلَتْهُ، ثُمَّ هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الْأَصْفَرِ، فَيَعْدِرُونَ، فَيَأْتُونَكُمْ

تَحْتَ ثَمَانِينَ غَايَةً، تَحْتَ كُلِّ غَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا. وَرَوَى " رَايَةُ "، بِالرَّاءِ وَالْغَيْنِ، وَهُمَا بِمَعْنَى. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَةَ وَالطَّبْرَانِيُّ .

وَعَنْ حُدَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ، قَالَ: {اطَّلَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَكَّرُ السَّاعَةَ، فَقَالَ: " مَا تَذَكَّرُونَ " ؟ قَالُوا: نَذْكُرُ السَّاعَةَ، فَقَالَ: " إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ [قَبْلَهَا] عَشْرَ آيَاتٍ "، [فَذَكَرَ]: " الدُّخَانُ، وَالدَّجَالُ، وَالدَّابَّةُ، وَطُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَيَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، وَثَلَاثَةُ خُسُوفٍ: خَسَفٌ بِالشَّرْقِ، وَخَسَفٌ بِالمَغْرِبِ، وَخَسَفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ } رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: {ذَكَرَ الدَّجَالُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: " إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْكُمْ، إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى عَيْنِهِ، وَإِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ أَعْوَرَ عَيْنِ الْيُمْنَى، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ } .

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ؓ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " {مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَانْدَرَقَ قَوْمُهُ الْأَعْوَرَ الدَّجَالُ، أَلَا إِنَّهُ أَعْوَرُ، وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، وَمَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ك ف ر } ، فَسَرَهُ فِي رَوَايَةٍ: " أَيُّ كَافِرٍ " .

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ {وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزَلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا، فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخَنزِيرَ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ، وَيَفِيضُ الْمَالَ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ، حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا } . ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: افْرَعُوا إِنْ شِئْتُمْ: (وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا)

وَأَحَادِيثُ الدَّجَالِ، وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَيَقْتُلُهُ، وَيَخْرُجُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ فِي أَيَّامِهِ بَعْدَ قَتْلِهِ الدَّجَالِ، فَيُهْلِكُهُمُ اللَّهُ أَجْمَعِينَ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ بِرَكَّةٍ دُعَانِهِ عَلَيْهِمْ: يَضِيقُ هَذَا الْمُخْتَصَرُ عَنْ بَسْطِهَا.

وَأَمَّا خُرُوجُ الدَّابَّةِ وَطُلُوعُ الشَّمْسِ مِنَ الْمَغْرِبِ - فَقَالَ تَعَالَى: (وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ) .

وَقَالَ تَعَالَى: (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ۗ قُلْ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ) .

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ الْآيَةِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ {لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا رَأَاهَا النَّاسُ آمَنَ مَنْ عَلَيْهَا، فَذَلِكَ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ } () وَرَوَى مُسْلِمٌ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَدِيثًا لَمْ أُنْسَهُ بَعْدُ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: {إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحَى، وَأَيُّهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا فَالْأُخْرَى عَلَى إِثْرِهَا قَرِيبًا } () .

أَيُّ أَوَّلِ الْآيَاتِ الَّتِي لَيْسَتْ مَأْلُوفَةً، وَإِنْ كَانَ الدَّجَالُ وَنُزُولُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ السَّمَاءِ قَبْلَ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ خُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، كُلُّ ذَلِكَ أُمُورٌ مَأْلُوفَةٌ؛ لِأَنَّهُمْ بَشَرٌ، مُشَاهِدَةٌ مِثْلِهِمْ مَأْلُوفَةٌ، [أَمَّا خُرُوجُ الدَّابَّةِ بِشَكْلِ غَرِيبٍ غَيْرِ مَأْلُوفٍ]

ثُمَّ مُحَاطَبَتُهَا النَّاسَ وَوَسْمُهَا إِيَّاهُمْ بِالْإِيْمَانِ أَوْ الْكُفْرِ فَأَمْرٌ خَارِجٌ عَنِ مَجَارِي الْعَادَاتِ. وَذَلِكَ أَوَّلُ الْآيَاتِ الْأَرْضِيَّةِ، كَمَا أَنَّ طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، عَلَى خِلَافِ عَادَتِهَا الْمَأْلُوفَةِ - أَوَّلُ الْآيَاتِ السَّمَاوِيَّةِ.

وَقَدْ أَفْرَدَ النَّاسُ [فِي] أَحَادِيثِ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ مُصَنَّفَاتٍ مَشْهُورَةٍ، يَضِيقُ عَلَى بَسْطِهَا هَذَا الْمُخْتَصَرُ.